الباب الثاني

قِصَصُ الأَوْلِيَاءِ

obeikan.com

1 ـ قِصَّةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ (τ)

2 ـ قِصَّةُ أَحْمَدَ السَّبْتِيّ (τ)

3 ـ قِصَّةُ العَابِدَةِ الشَّعْوَانَةِ (τ)

4 ـ قِصَّةُ الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ (τ)

5 ـ قِصَّةُ سَرِيِّ السَّقْيِطِيِّ (τ)

6 ـ قِصَّةُ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ (τ)

7 ـ قِصَّةُ رَابِعَةَ العَدَوِيَّةِ (τ)

8 ـ قِصَّةُ ذِي النُّون المِصْرِيِّ (τ)

9 ـ قِصَّةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ المُهَذَّبِ (τ)

10 ـ قِصَّةُ العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار (τ)

11 ـ قِصَّةُ أَبي حَمْزَةَ الخُرَسَانِي(τ)

12 ـ قِصَّةُ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ (τ)

13 ـ قِصَّةُ الشَّيْخِ عَلِي البَكَّاء (τ)

14 ـ قِصَّةُ الشَّيْخِ الحَرَّانِيّ (τ)

15 ـ قِصَّةُ الشَّيْخِ الوَاسِطِيِّ (τ)

16 ـ قِصَّةُ الشَّيْخِ الأَصْبَهَانِيِّ (τ)

17 ـ قِصَّةُ عَبْدِ اللهِ التَّنُوْخِيِّ (τ)

18 ـ قِصَّةُ الشَّيْخِ الفَاضِلِ (τ)

obeikan.com

1 ــ قِصَّةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ (τ)

إبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ أحدُ مشاهير العُبّاد وأكابر الزّهَّاد، كانت له همّة عالية في الصبر على الحياة وتَرْكِ لذائذها ومتاعها. وأمّا نسبتُهُ فهو إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ بن منصور بن يزيد بن عامر بن اسحق التميمي. أصلُه من مدينة بَلْخ الفارسيَّة، لكنّه سكنَ الشامَ ودخلَ دمشق ومات في جبلة سنة /162 هـ، 785 م/، وأمّا تاريخ ولادته فهناك اختلاف فيه، فمنهم مَنْ يقول أنَّه وُلِدَ في خراسان سنة/100 هـ، 722 م/، وهو ابنُ مَلِكِها، ثمّ تسلَّم الحُكْمَ بعده. ومنهم من يُرْجِع ولادته إلى سنة/ 98 هـ، 720 م/ في مدينة بَلْخ الفارسيّة، وكان ابناً لملك إحدى الممالك الكبيرة، ثم تسلَّم الحكمَ بعد والده، والروايتان وإن اختلفتا بمكان الولادة، فهما تتفقان على أنّه وُلِدُ في بلاد فارس وتسلَّمَ بعد والده أدهم بن منصور.

وكان لا يأكل إلاّ من عمل يديه بالحصاد، وعَمَلِ الفاعل وحِفْظِ البَسَاتين وقد دخل مكَّة بعد ترْكِهِ لِملكِهِ وَصَحِبَ سفيان الثوري والفضيل بن عيَّاض وكان أكثرُ دُعائِهِ كما يقول أبو نعيم وابن عساكر: «**اللهُمَّ انْقُلْنِي مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَتِكَ إِلَى عِزِّ طَاعَتِكَ**»، وكانت له سرائرُ ومعاملات بينه وبين اللّه عزّ وجلّ، فما أكَلَ مع أحد طعاماً إلاّ كان آخر من يرفع يده عن الطعام، وقال الحارث الحافي: «**أربعةٌ رَفَعَهُمُ اللهُ بِطِيْبِ الطَّعَامِ، وإِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ أحدُهمْ**». لكنّه كان إذا أكل يأكلُ من رديء الطعام، ويحرم نفسَهُ المَطْعَمَ الطيِّبَ ليبرَّ النَّاس به، وما تأخَّرهُ برفع اليد إلاَّ لأَنَّه كان يأكلُ متمهِّلاً.

أخباره كثيرة ومواعظه وفيرة، وسنذكر في هذا الصدد قصّة خروجه من مُلكِهِ وسببه، وتجواله، وبعض الأحداث التي جرت معه حتى سنة وفاته/162هـ/ رحمة اللّه عليه.

قِصَّةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ وَسَبَبُ زُهْدِهِ

روى الشيخُ أبو الوليد أحمد بن علي بن حسين بن أحمد الشامي عن والده، خبرَ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ الملك العادل وقصَّة زهده في الدنيا ونُسْكِهِ في الحياة فقال:

كان إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ ملكاً ذا جَاهٍ كبير، وَمَالٍ كثير، فقد كانَ يُخْطَبُ له على أربعة آلاف وأربعمئة منبر، وكان تحت أمره جيشٌ عظيم، وله في كلّ مدينةٍ وتحت سلطته اثنا عشر قائداً، ولكلّ قائد منهم سلطة على اثني عشر ألف فارس، وكلّها خاضعة لسلطانه، سائرة بأمره. وكان كثير الترف والغِنى، يحبُّ الصَّيْدَ، يمشي بين يديه أربعةُ آلاف غلامٍ يقودون كلاب الصيد، ويجمعون الطرائد، وفي يد كل غلام منهم جَامٌ[1] من الذهب الأحمر. فركب إبراهيم إلى الصيد، يحمل في يده بَازاً[2]، ويسير أمامه حاشيتُه، والأمراءُ الخاضعون لسلطانه يسيرون خلفه، فصادف موكبه شيخاً كفيفاً جالساً على كرسيّ وبجانبه غلام يقوده أينما سار. وقد تجمّعت الناس لرؤية الملك وفخامة موكبه، وعَظَمة هيئتهِ. وكان الحرّاسُ والغلمان يضربون الناس بقضبان من الذهب ليفرّقوهم ويبعدوهم عن الطريق. فلمّا وَصَلَ بعضُ الغلمان إلى الشيخ الذي ظهرتْ عليه علائمُ الوَرَع والتقوى والخشوع والزهد، قال لهم: مَا بَالكُم وما غايتُكُم؟

فقالوا: وَيْلُكَ! قد جاء المَلِكُ. فقال: وَيْلَكُم! لا تقولوا (المَلِكَ) ولكن قولوا: المملوكَ العَبد الخاطئَ الفقيرَ الحقيرَ الذليلَ العَاصيَ. ثمّ أنشد يقولُ:

أَنَــا مَيِّــتٌ وَعَــزَّ مَــنْ لاَ يَمُــوْتُ   قَــدْ تَيَقَّنْــتُ أَنَّنِــي سَــأَمُوْتُ

لَــيْسَ مُلْــكٌ يُزِيْلُــهُ المَــوْتُ مُلْــكٌ   إِنَّمَــا المُلْــكُ مُلْــكُ مَــنْ لاَ يَمُــوْتُ

فاستنكر الغلمانُ كلامَ الشيخ، فذهبوا وأخبروا الملك بما جرى. فلمّا سمع مقالتهم قال: لا تضربوا أحداً. وقام من لحظتهِ إلى الشيخ فَسَلَّمَ عليه وسأَلَهُ: بِمَ يَصِلُ العَبْدُ إلى الكُلِّ يا شيخي؟ فقال الشيخُ: بِتَرْكِ الكُلِّ. فبكى، وفهم مغزى كلام الشيخ، ثمّ رجع إلى قصره ولم يكمل رحلة صيدِهِ ودخلَ غرفته وأمر بإغلاق

---

(1) : الجَامُ : إناءٌ للشُّرْبِ وَالطعامِ من الفضّةِ أو الذهَبِ .

(2) : البَازُ : مِنَ الطيورِ الجَارحةِ، يَشبهُ الصقرَ .

obeikan.com

الأبواب، ومَنَعَ الدخولَ عليه لأيّامٍ ثلاثةٍ بلياليها. فلمَّا تأخّر بالخروج على الأمراء والوزراءِ تجمّعوا خَلْفَ الباب وأرادوا كَسْرَهُ، ظنّاً منهم أنّ مكروهاً أصابه. وكان هو في هذه الأثناءِ يتضرّع إلى الله أن يغفر له، ويهديه سواء السبيل، حتّى مَنَّ اللهُ عليه بالمغفرة والهداية والعناية الإلهية، فلمَّا دخلَ الخَدَمُ عليه واستأذنوه فَتْحَ الأبوابِ، فأذِنَ لهم، دخل الناسُ عليه من وزراء وأمراء وأهل بيته. فقالوا له: أيُّها الملكُ ما الذي أصابَكَ؟ فقال لهم: جئتم تقولون لي أيُّها الملك، وإنّما أنا عبدٌ فقيرٌ عَاصٍ لمولاه، ذليلٌ حقيرٌ ضيَّعَ مُنَاهُ بملهاهُ. فقالوا: أيُّها الملكُ أخبرنا قصَّتَكَ.

فقال: قد عرفتُ أنّي غُرِرْتُ بالدنيا الفانية، وأَضَعْتُ آخرتي، وإنّي استغفرتُ ربّي عن تفريطي في ديني ودنياي، وإنّي زهدتُ في هذه الدنيا الفانية ولذائذها الزائلة، وقد عزمْتُ على الخروج منها، سالكاً دَرْباً عَسَى يقودني إلى النجاة والخلاص، قبل انقضاء الأجل وانطفاء الأمل. فَسَألوهُ مستغربين: وَبِمَ زهدتَ في هذه الدنيا، ولم نعرف ذلك منك؟ فقال: بثلاثة أشياء:

أوَّلُها: أَنّي قد علمتُ أنّ القبر بيتي وليس معي مؤنسٌ يخفّفُ عني وحشتي أو يؤنس وحدتي.

وثانيها: رأيتُ الطريقَ طويلاً وليسَ معي زادٌ[1] يوصلني. وثالثُها: علمتُ أنّ قدّامي جبّاراً يحاسبني وليس معي حُجّةٌ[2] تنقذني.

فقالوا: إن كان ولا بُدَّ من زهدك، فاعْبُدِ الله تعالى في مكانك.

قال: لا تصحُّ الدنيا والآخرة في مكانٍ واحدٍ.

فقال بعض مَنْ يحبُّهُ: فَدَعْنَا إذن نكنْ معكَ، وفي خدمتك، نَسْلُكُ الطريق الذي تسلكه ونحملُ عنك أعباءَ الدنيا.

قال: أنا ما كنْتُ في بَطنْ أمّي إلاّ وحدي، وما أدخل القبر، إلاّ وحدي فماذا أصنع بكم معي؟

(1) المقصودُ بالزادِ هُنا هُو الأعمالُ الصَّالحَةُ التي تبلِغُ الإنسانَ الجَنَّةَ.

(2) الحُجّةُ: الدليلُ والبرهانُ على صِدْقِ الأعمال.

obeikan.com

فأبى بعضُ الحُجَّابِ والنوّابِ والخواصّ[1] مفارقته قائلين: والله لو قَطَّعْتَنَا إرْباً إرْبَاً ما فارقناك.

فقال: مَعَاذ الله أن أقطّع منكم أحداً، ولكن فلنمضِ إلى الشيخ الواعظ. فساروا إليه فلمَّا وصلوا دخلوا عليه وسلَّموا. فقال له إبراهيم: أيُّها الشيخُ بِمَ يصلُ العبدُ إلى الكلِّ[2]؟

فقال الشيخ: بترك الكُلِّ[3].

فقال إبراهيم لِمَنْ قَدِمَ مَعَهُ يريدُ مُرَافَقَته من الخواصّ والغِلْمَان[4]:

أسمعتم كلام الشيخ؟ لا حاجة لي بكم ولا بصحبتكم.

فقالوا: وما نصنعُ بهذه المماليك والأموال والجنود والعساكر والغلمان؟

قال إبراهيمُ: كلُّ مملوكٍ لي فهو حُرٌّ لوجه الله تعالى، وكلُّ مملوك هو لغيري، فهو مردودٌ على أهله، وكلُّ مَنْ بيده مدينةٌ أو قريةٌ فأنا بريءٌ منها ومنه فليعملْ هو ما يريدُ ويخلِّصْ نفسه.

ثم أنّ إبراهيم صَبَرَ إلى الليل، وخرجَ ولم يعلمْ به أحدٌ، هَارِباً إلى الله تعالى، ولمْ يأخذْ معه من مُلْكِهِ شيئاً سوى مصحفه وسيفه وجواده الذي كان إذا أطلَق له عِنَانَهُ يسيرُ في ليلة واحدة أربعين فرسخاً[5] فلمّا سار ليلاً في البّرية، جَازَ على بعض الرعاة في خيامهم، فقال لأحدهم: أمَا تأخذ ثيابي وتعطيني جُبَّتَكَ[6]؟

---

(1) الخَوَاصُّ: الأصدقاءُ المقرّبين والأهلُ الخاصّين بالإِنْسَانِ.

(2) الكُلَّ: المقصودُ به هنا هو الله تعالى جوهرُ كلّ شيءٍ.

(3) أمّا الكُلّ الثانية المطلوب تركها فهي الدنيا ومتاعها الزائلة.

(4) الغِلْمَانُ: مُفردُها الغُلَامُ وهي الصّبي منذ ولادته حتى يشب وتعني أيضاً الخادم الصغير.

(5) الفَرْسَخُ: يُسَاوي 3 أميالَ هاشميةٍ، والمِيْلُ الهاشِمي يُساوي 5760 متراً. فالفرسخ يساوي 17280 م

(6) الجُبَّةُ: ثوبٌ طويلٌ واسِعُ الكُمَّيَنِ، مَشْقُوقُ المقدَّمِ، يُلْبَسُ فوقَ الثياب.

فقال الراعي فرحاً وقد رأى ثياب الملوك التي يرتديها إبراهيم: نعم. بكلّ سرور. فَخَلَعَ إبراهيم ثياب الملوك وأعطاها للراعي، وأخذ منه جُبَّة الصوف ولبسها، وتابع سيره طوال ليلته حتى طلع عليه الصباح. وقد قطع على جواده الأصيل مسافةً طويلةً مرَّ من خلالها بين الخرائب المتهدّمة يتَّعظ بمرآها، وبين المدن الزاهرة فيحاول تجاوزها بكل سرعته كي لا تضعف نفسه. وبينما هو يسير وإذ هو بمرج أخضر، فيه عينُ ماءٍ تجري، فنزلَ عن جواده، وأخذ لجامَه وأطلقه بحال سبيله، وثمّ حَفَرَ حُفيرةً وَدَفَنَ السيفَ واللجامَ، وخافَ أن يؤذى بسيفهِ أحدٌ من الناس بعده، لذلك دفنَهُ تحت التراب، ثمّ عمدَ إلى بناء كوخٍ صغير من الحجارة أقام فيه أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب إلاّ ما يبقيه حَيّاً، وإنّما كان انصرافه للعبادة والتهجّد[1] والتضرّع للخالق ليقبلَ توبته ويغفر ذنوبه، وإسرافه في ملذّات الحياة الفانية. وفي ليلته الحادية والأربعين، وبينما هو شارد يفكّر في أمره، محتارٌ بقبول توبتهِ أم لا، غَلَبَ عليه النعاس فنامَ على الأرض لشدَّةِ تعبِهِ وصومِهِ فجاءَهُ أسدٌ ولبؤةٌ، ففرشت اللبوةُ جنبها برفق تحت رأسه، ووقف الأسدُ فوق رأسه بالطول يمنعُ عنه المطرَ بعد أن شرعت السماءُ تمطرُ. فانتبه إبراهيمُ من نومه إذ أحسَّ بشيءٍ ليِّنٍ تحت رأسه قبلَ أن يفتح عينيه ففزع وظَنَّ أنَّهُ قد رَجَعَ إلى الفِرَاشِ الوثير ووسائد النَّعَام، ففتحَ عينيه وإذا هو بأسدٍ فوقه يمنع عنه المطر، ولبؤة تحته تمنع عنه الخشونة والبرودة. فقال وقد شعر بشيء من الخوف أوّل الامر: لا إلَه إلاَّ اللّهَ، لقد صَدَقَ الشيخ الواعظ في قوله «**مَنْ ترك الكلّ وصلَ إلى الكُلِّ**». فقد كانت الوحوش أعداء تهاجم وتفترس وقد جعلهم اللّه سبحانه أصدقاء تحمي وتَفتَرِش[2]، فها هي رحمة الخالق تصله وهذه دلالة على قبول توبتهِ، وقد عرف إبراهيم أنَّ اللّه سبحانه قد سَخَّرَ له هذه الوحوش. ثمّ رأى من اللبؤة أمراً عجباً، فقد رآها تجثم أمامَه كأنَّها تدعوه لامتطائها، فركب ظهرها وسارت به مسافة طويلة قاطعة به البراري حتى وصلَتْ أطراف مدينةٍ فنزل عنها وحمد رَبَّهُ وشكَرَهُ، ورَبَّتَ عليها وعلى الأسد شاكراً لهما، وسرّحهما، وجعل على

(1) التَّهَجُّدُ: القِيامُ للصَّلاة في الليلِ .

(2) تفترِشُ : تجعلُ من نَفْسِها فِرَاشاً .

وجهه لِثاماً كيلا يعرفه أحدٌ. ثمّ دخل المدينةَ فسأَل عن حاكمها ومتولّي شؤونها، فقيل له: إنّ المتولّي فلان من بعض مماليك إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ. فجاء إبراهيم إلى رجلٍ بقّالٍ فدفعَ إليه بالمصحف على شيءٍ يأكله بدرهم، فلمَّا أكل وشبع، حمد ربّه وشكره على نعمته، ثم شَرِبَ شَرْبة ماءٍ، ومضى يطلبُ إنساناً يعملُ عنده ويأخذ أجرته ليَسْتفكَّ المصحف من الرهن. فرآه أحد غلمان المتولّي فقال له: احملْ لي تلك الحَمْلَةَ إلى دار المتولّي وأعطيك درهماً، وقد كانت الحَمْلَةُ ثقيلةً وتساوي أكثر ممّا عَرَضَ الغلامُ لكنّه قَبِلَ، فحملها على رأسه وسار بها مسافة طويلة إلى دار المتولّي وقد تعب تعباً شديداً، وتساقَطَ العرقُ منه بكثرة كونه لم يتعوَّدْ هذه الأعمال الشاقّة، وهو الذي تعوّد الرِّقَّةَ والرفاهية في الحياة، فلمَّا وَضَعَ الحَمْلَةَ قال: أعطوني أُجرتي لأذهبَ، فقد قال رسول الله (J): «**أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ**». فسمعَ المتولّي كلام إبراهيم فنظر إليه نظرة تكبُّرٍ واستعلاء، وهو جالس على كرسيّ مُذَهَّبٍ، وعليه ثياب من الحرير والديباج، وعلى رأسه شاش من الذهب، وبيده مِيْلٌ[1] يلعب به، وقد ثنى رِجْلاً على رِجْلٍ كأنّه جَبَّارٌ عنيد، وأومأَ إلى إبراهيم بالمِيْلِ وقال: مَنْ هذا الذي يطلبُ مِنَّا أجرةً على عملٍ شرَّفْنَاهُ بخدمته لنا، وإنَّما نحن نأخذُ ولا نعطي؟

فقال إبراهيمُ: يا هذا! إن أعطيتَ فما خرجتَ عن العدلِ.

وكانَ المتولّي قد سمع بخبر إبراهيم وخروجه من مُلْكِهِ، فظَنَّ به ساعتئذٍ فنزل عن كرسيّه وكشف عن وجهه اللثامَ فعرفه، فصرخ نادماً: يا ويلي! أنتَ في هذه الحال يا مولاي وأنا حيٌّ في الدنيا، وحاولَ أن يقبض على سكين يقتل بها نفسه. فقبض إبراهيم على يده وقال له: لا تفعلْ. لم يأمر الله تعالى بهذا، ولكن أعطني أُجرتي درهماً واحداً، حتّى أنصرف عنك قبل أن يعرفني أحدٌ، وأنا أقسمُ عليك بالله أن تكتمَ أمري.

---

(1) المِيْلُ: ما تكْتَحَلُ به العَيْنِ ويُسمَّى أيضاً المِرْوَدُ، وهنا جاءَ بمعنى القضيبُ من الذَهَبِ للإِشَارَةِ بِهِ

فقال له: يا مولاي! أنا مملوكك، وكل ما أملك هو لكَ، وقد جمعتُ لكَ منذ عشرين سنةٍ خزائن من ذَهَبٍ وفضّةٍ.

فقال إبراهيم: إن كُنْتَ مملوكي فأنتَ حُرٌّ لوجه الله تعالى، وإن كانت البلد بلدي فقد ولّيْتُكَ أمرها، فاستعمل العدلَ واللِّيْنَ فإنّي قد برئتُ منكَ، وإن كُنْتَ قد جمعتَ لي مالاً فردّه إلى الناس، وأعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حَقّهُ، وأعطني درهمي أستفِكُّ به مصحفي.

فأحضَر المتولّي كيساً فيه عشرة آلاف درهمٍ، فرفضَهُ إبراهيمُ، وأخذ منه درهماً وترك الباقي، وقال إن خرج هذا المالُ من نفسِكَ فاصرفه على الفقراء والمساكين، وأُقسِمُ عليك ألاّ تتبعني.

ثمّ غادر وأتى البقّال وأعطاه الدرهم وأخذ المصحف، وخرجَ هارباً على وجهه، ولم يزلْ سائراً متنقّلاً بين المدن والقرى حتّى وصلَ أنطاكيَّةَ في شمال بلاد الشام، فدخل مسجداً، فلمّا صلّى العِشَاءَ وغادر جميعُ المُصَلِّين، بقي إبراهيمُ يريدُ قضاءَ ليلته في المسجد، فأتى البوَّابُ إليه وقال له: اخرجْ يا فقيرُ حتى نغلقَ باب المسجدِ.

فقال له إبراهيمُ: يا أخي! أنا رجل غريب وليس لي موضع آوي إليه، وهذه ليلة شتّاءةٌ باردة، فاسمح لي بقضاء ليلتي في المسجد.

فقال له البوَّاب: اخرج ولا تطوّل علينا بالكلام، فإنّنا لا نُؤوي الغرباء في مساجدنا. وكان الناس في تلك المناطق يخافون الروم ودسائسهم فظنَّهُ واحداً منهم. فسكتَ إبراهيم ولم يرد جواباً، فقال له البوّاب: قمْ وإلاَّ جَرَرْتُكَ برجليك للخارج ولو كنت إِبْرَاهِيْمَ بْنَ أَدْهَمَ.

فقال له: أنا إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ.

فقال له البوابُ: أما كَفَاكَ ما فعلتَ حتّى تكذب وتدّعي أنَّكَ إِبْرَاهِيْمَ بن أَدْهَمَ؟

ثم عمد البوّاب إلى إبراهيم وأخذ برجله وجرّه حتّى أخرجه إلى الزقاق وقد أُغشِيَ عليه نتيجة ضربه يميناً وشمالاً. فلمَّا أفاق صار يبحث عن مكان يتآوى فيه

من المطر، وقد صارت حاله سيئة، والوَحَلُ غطّى جسدَهُ، فنظر فإذا بمكان قريبٍ منه وفيه سراجٌ مشتعلٌ، فتقدّم منه وهو يجرّر نفسَهُ متعباً متهالِكاً، فإذا بعبدٍ أسودَ يوقد في تنُّور حمَّامٍ، فدخلَ إبراهيمُ على العبد وسلّم عليه، فلم يرد عليه السلامَ وهو يهمهم بشفتيه كلاماً لم يفهمه إبراهيم. فخشي إبراهيم أن يكون العبد أقسى قلباً من ذلك البوّاب القيّم على المسجد، فلم يَدْنُ من النار، بل جَلَسَ على ناحية من الزِّبْلِ[1]، فعَمَدَ العبدُ إلى قرصين من الشعير ووضعهما بين يدي إبراهيم، ورجع إلى شغله. فقال إبراهيم في نفسِهِ الظاهر أنّ في قلب هذا العبد الأسود رحمة وشفقة، فأكل القرصين وتقرّب من النار، ونشّف جبّته، ولم يزل العبدُ يوقد النار طوال الليل ولسانه لا يفتر عن ذكر الله تعالى.

فلمّا أصبحَ توقّف العبدُ عن الوقيد، وردّ السلام على إبراهيم فقال إبراهيم مستغرباً: يا سبحانَ الله! سلَّمتُ عليكَ أوّل الليل، فتردّ السلام عليَّ أوّل النهار؟!.

فقال العبدُ: يا عبدَ اللهِ! الآنَ أبسط لك العذرَ. فاعْلَمْ أنِّي مملوك، وأنا في خدمة مولاي الأكبر، ومولاي الأصغر. فقلْتُ لمولاي الأصغر: أتختارُ منّي أن أخدمك ليلاً أم نهاراً؟ فاختارني في الليل في هذا المكان، فخشيتُ أن أردّ عليك السلام فتسألني شيئاً آخر أنشغل به عن الخدمة، فأكونُ خائناً لأمانتي، مهملاً في عملي، والآنَ قدْ أنهيتُ خدمتي عند مولاي الأصغر، وقضيتُ نوبتَهُ، وجاءتْ نوبةُ مولاي الأكبر وهو كريمٌ غفور رحيم مستَغْنٍ عن خلقه.

فقال إبراهيم: لِمَ لا تسألِ الله تعالى أن يعتقك من الرِّقِّ والعبودية؟

فقال: إنّ مولاي الأصغر قد عَاهَد الله عزَّ وجلَّ أنّه إذا وقعَ بصرُهُ على إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ أن يعتقني لوجه الله تعالى.

فقال له: أنا إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ. فصرخ العبد محموماً فَرِحاً: باللهِ عليك أنتَ إبراهيم؟

فقال: نعم.

---

(1) الزِّبْلُ: رَوْثُ الخَيْلِ والمَاشِيْة وَغَيْرِهَا من البَهَائِمِ، تُتَّخَذُ لتَسْمِيْدِ الأرض وإصلاحِ الزَّرْعِ وَالتدفئةِ

فانكبَّ العبدُ على رِجْلَيْ إبراهيم يقبّلهما، وفي هذه اللحظة دخل سيّدُ العبد عليهما فقال: مَنْ هذا، وماذا تفعل؟

فقال العبدُ: يا سيّدي! مَنْ هو الذي قُلْتَ عنه أنَّكَ تعتقني لو رأيتَهُ؟

فقال السيّدُ: إنّه إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ من قلتُ عنه.

فقال العبد: هذا هو بشحمه ولحمه.

فقال السّيّدُ مخاطباً إبراهيمَ ومُظْهِراً دهشةً وإعجاباً: يا سيّدي صحيح هذا؟

قال: نعم. فوقعَ على يديه يقبّلهما وقال له: لنمضِ يا سيّدي إلى بيتي. فقال إبراهيم: حُبّاً وكرامةً.

فمضوا جميعاً إلى بيت الرجل، فدخل الرجل وأتاهم بشيء من الزاد، فقال له إبراهيم: لا أذوق زادك ولا آكل من طعامك حتى تفي بوعدك لهذا العبد.

فقال: نعم. هو حرّ لوجه الله تعالى.

فأكل إبراهيم حتى اكتفى، ثم شكر الرجل على ضيافته، وحاول العبدُ أن يتبعه ليخدمه، فقال له: ما خلّصك الله تعالى من الرِّقِّ حتى تعودَ إليها، وأنا قطعتُ عهداً ألاّ أرافق أحداً غير خالقي.

ثمّ تابع إبراهيم سيره داخلَ المدينةِ، فتعلّق به رجلٌ ضريرٌ فقيرُ الحالِ، وقال له: يا سيّدي! أنا رجلٌ صاحب عيال وأنت ترى حالتي، فهل معك شيء تعطنيه أستعين به على إطعام عيالي؟ حُبًّاً باللّهِ أن تفعل؟ فقال إبراهيم: والله لا أملك شيئاً، ولكن خذني إلى سوق النخاسة وبِعْني وانتفع بثمني[1]. فقال الشيخ مستغرباً هذا التصرّف الذي لم يسمع بمثله قطّ: وكيف ذلك يا سيدي؟

فقال له: أنا رضيتُ بذلك فلا تجادل.

---

(1) سُوْقُ النِّخاسةِ: هو السوقُ الذي يُبَاعُ ويُشتَرى به العبيدُ والجواري، ويجبُ أنْ نشيرَ هنا إلى أنَّ الحادثة في بيع إبراهيم تُشابهُ حادثةُ بيعِ النبيّ الخَضِرُ نفسَهُ ليُساعِدَ ضريراً طلبَ مساعدتَهُ، ولا ندري أيّ الحادثتين مأخوذةٌ عن الأخرى، ولذلك أثبتناهما، كُلٌّ في موضعِهَا .

فأخذ إبراهيم بيد الشيخ الأعمى إلى السوق، فوجد تاجراً من أعيان التجار في تلك المدينة. فقال للشيخ وكان يعرفه: إلى أين تمضي مع هذا الرجل؟ فقال: إلى سوق النخاسة لأبيعه وأنتفع بثمنه لإطعام عيالي. فقال التاجر مستغرباً: وهل كنت تملكه حتى تبيعه؟

قال: لا. وأخبره بحكايته معه. فاستغرب التاجر هذا العطاء وقال للشيخ: هل تبيعني إيّاه بهذه الدراهم الخمسة؟ وأنا آخذه وأستعمله عندي أيّاماً قلائل، فإذا فرغ من شغله عتقتُه؟

فرضي الشيخ، وقبض إبراهيم الثمن ودفعه للضرير، وقال له معتذراً اذهب إلى عيالك فإنَّهم ينتظرونك.

ثمّ سار إبراهيم مع التاجر وقال له: فيْمَ تستعملني يا سيّدي؟ فقال التاجر: لي بستان وفيه تلّ تراب كبير، فإن نقلتَهُ لي من مكانه عتقتُكَ. فأخذ التاجرُ إبراهيم إلى البستان وأراه التلَّ، فإذا به تلّ كبير يحتاج نقله أشهراً من العمل المتواصل والمُتْعِب. فقال إبراهيم: استعنتُ بالله، أحضر لي مجرفةً وزنبيل عَمَلٍ، وقرصَ شعير وقليلَ ملحٍ. فأحضر التاجر له ما طلبَ، وقال له: إذا عطشتَ هذا الماء عندك. ثم خرج وتركه وحده مع ذلك التل الكبير. فأخذ إبراهيم القرص وهَمَّ أن يأكل منه، لكنّه توقَّفَ وقال في نفسِهِ: كيف آكُلُ خبز من لا عملتُ له شغلاً. ثم أخذ المجرفة وأقبل على التراب فنقل منه حتى صار الوقت عصراً، فتعب ونام، فأمر الله سبحانه جبريلَ (u) أن يقلع التلَّ من مكانه، فقلعه بقدرة الله تعالى بلحظةٍ واحدة فلمَّا أفاق إبراهيم من نومه ونظر إلى تلّ التراب الذي ما كان ينتقل بسنةٍ قد نُقِلَ فقام وتوضَّأَ وصلَّى ركعتين ورجع ونام، وأثناء نومه خرجت من البستان أفعى عظيمة، وكانت قد قتلت للتاجر ثلاثمئة مملوك بسبب ذلك التراب، ثمّ أتت هذه الأفعى تحمل في فمها عِرْقَ ريحان أخضر، وجعلت تنشُّ[1] الذباب عنه. ولم تمضِ فترة من الزمان حتى عاد التاجر لينظر ما يفعل إبراهيم بعمله، فلمّا وصلَ دُهِشَ أيّما دهشة، وصُعِقَ

---

(1) تَنُشُّ: يُقالُ نَشَّ الذبابَ أي طرَدَهُ وأبعدَهُ عن مكَانِهِ .

لمرأى التلّ الكبير وقد نقل من مكانه وزاد تعجّبه رؤية الحيّة على تلك الحال عند رأس إبراهيم وهي التي قتلت كل أولئك العمّال عنده، فصاح صيحةً عظيمةً جعلت إبراهيم ينتبه من نومه ويقول للتاجر: ما شأنك يا مولاي؟ لِمَ تصرخ؟ هل أنكرتَ من أمري شيئاً؟

فقال التاجر: أيّها العبد الصالح! لا تقلْ لي يا مولاي، بل أنت مولاي وسيّدي، وأنا المملوك العبد.

فقال إبراهيم مستغرباً كلام الرجل: وكيف ذلك؟ وماذا رأيتَ مني لتقول ذلك؟

فقال: رأيتُ مِنْكَ أمرين عجيبين. الأوّل: هو تِلْكَ التلَّة العظيمة من التراب التي ما كانت تنقل ولا تتزحزح إلاّ بمدّة طويلة وقد نقلتَها أنت بساعاتٍ، والثاني: تلك الحيّة التي قتلت لي ثلاثمئة مملوكٍ حاولوا نقلَ التراب، وقد كانت تروَح عليك وتنشُّ الذباب عنك بعِرْقِ الريحان.

قال إبراهيم: ما كان بيننا من اتفاق فقد تمَّ، وعليك الآن أن تعتقني وقد زال التراب ونُقِلَ بقدرة الله تعالى وليس بحولي وقوتي، وأمّا الحيّة وشأنها فأنا لم أرها ولم أشاهد ما فَعَلَتْ.

قال التاجر: أقسمتُ عليكَ بعزَّةِ العزيز، وجلال قدرته، وعظيم سلطانه وقدّوس شأنه أن تخبرني من أنت.

فقال: إذا قلتُ لك تعتقني؟

قال: أنتَ حرٌّ لوجه الله تعالى مهما تكن.

فقال: أنا إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ.

فقال التاجر وقد زادت غرابتهُ ودهشتُه: كل شيء معي هو من بعض إحسانك عليّ، وأنت قد ساعدتني في أكثر أوقاتي عسرة، وكنتُ قد اشتريتُ مئة مملوكٍ لأسافر بهم إلى بعض بلادك لأبيعهم وأربح بثمنهم، وهم الآن معتوقين لوجه الله تعالى، فقد وهبتُ لكلّ واحد منهم نفسه، فأنت قد بِعْتَ نفسك لتساعد غيرك، وأنتَ من أنت.

قال إبراهيم وقد حمد الله وأثنى عليه: ما أحسنَ المعاملة مع الله تعالى، لا يخسر إنسان يتعامل معه.

ثمّ إنّه خرج من عند التاجر بعد أن قضى عنده يومه معزّزاً مكرّماً، وسار سائحاً في حبّ الله الذي لا يُعادل حبّه، سار إبراهيم ينتقلُ من بلدٍ لآخر، وهو قانع بحبّ الله والتعامل معه، يزهد في الدنيا، وقد هَجَرَ أهله وأولاده ومُلْكه ومَضَى يغنيه حبّ الخالق عن المخلوقات، ثمّ مرّت فترة طويلة عليه في ترحاله وتجواله، يعلّم الناسَ ويَعظهم دون أن يأخذ أجراً على ذلك، وبعد عشرين سنة من خروجه من مُلْكِهِ، وأثناء تواجده في مكّة المكرّمة، وحوله جماعة من الفقراء، سأله بعضهُم: يا شيخنا! أوصنا بما ينفعنا في دنيانا وآخرتنا.

فقال: أوصيكم بتقوى الله سرّاً وجَهْراً، فإنْ كنتُم لا ترونه فهو يراكم، ولا تتذلّلوا لغير الله، ولا تخافوا غيره، وإنْ خفتم بَشَراً دونه سَلَّطَهُ الله عليكم، وإيّاكم والنظر إلى المُرْدِيَاتِ[1] الفاتناتِ المهلكات. فما أتمَّ كلامَهُ حتى مرّ شابٌّ من أحسنِ الشباب ومعه عشرون غلاماً في جيوبهم دنانير ذهبيةٌ يتصدّقون بها على الناس. فجعل إبراهيمُ يطيلُ النظرَ إليه. فخاطر في بالِ بعضهم أنّه ينهى عن شيءٍ ويفعله، فقال لهم وقد أدرك ما يفكّرون به: لعلكم أنكرتم عليّ إطالتي النظر نحو ذلك الشاب؟ فقالوا: نعم. قال: لو عَلِمْتُم مَنْ يكون هذا الشاب، ما أنكرتُم عليَّ، فهذا ولدي الذي تركتُهُ في الرضاع منذ مدّة عشرين سنة، فلمّا رأيتُه عَرَفْتُه، وقد جاءَ يسألُ الله أن يراني في هذه الدنيا.

فقالوا: وَلِمَ لا تعرِّفْهُ مكانك؟

فقال: لا أقدر على ذلك، فإنّي أخاف أن أشارِكَ حُبَّ اللهِ بحُبِّ ابني فأضعفَ وأخسَرَ دنياي وآخرتي. ثمّ أنشد يقولُ:

---

(1) المُرْدِيَاتُ: يُقالُ أرْدَاهُ أيْ أهلَكَهُ، فالمردياتُ هي المُهْلِكَاتُ لِصَاحِبِها المُتَعَلِّقِ بها كالنقود والذَّهبِ ونحوها.

Obeikan.com

هَجَـرْتُ الخَلْـقَ طـرّاً[1] في رِضَـاكَ وَيَتَّمْـــتُ العِيَـــالَ كَـــيْ أَرَاكَ

لَـــوْ قَطَّعْتَنِـــي في الحُـــبِّ إِرْبَـــاً[2] لَمَـــا حَـــنَّ الفُـــؤَادُ إِلَـــى سِـــوَاكَ

ثمَّ غادر مكّة متوجِّهاً إلى البصرة، فلمَّا دخَلَها سأل بعضاً من أهلها عن سوق تمحيص الذنوب[3]. فَسخر الناس منه وظَنُّوهُ مجنوناً وسَأَلُوهُ: وأين يكون ذلك؟ فيقول: هو مَوْضِعُ البهدلةِ والشتمِ والسَّبِّ والقَذْفِ[4] والضَّرْبِ.

فكان إبراهيم يدخل إلى ذلك السوق الذي يحتوي السفهاء وحثالة الناس، فيضربونَهُ ويرمُوْنَ به إلى الأرض ويَدُوْسُونَ عليه ويُلْحِقُونَ به شتّى الإهانة والتعذيب. فيقوم وهو يحمُد اللّه تعالى ويقول: هنيئاً لِمَنْ يَمْحِي ذنوبَهُ قَبْلَ المَمَاتِ.

ثم ذهبَ إلى بغداد، وعمل عند صاحبِ كَرْمٍ من العِنَب يَنْطُرُهُ ويحرسُهُ، فمَرَّ به رجلٌ غَليظُ القَلْبِ والخُلْقِ، فقال له: يا إبراهيمُ أطعمني من هذا العنب.

فقال له: ليس معي إِذْنُ صاحِبِ الكَرْمِ.

فغضب الرجل وصار يضربه بسوط يحملُه في يده، فجعل إبراهيم يُطَأْطِئُ رأسَهُ ويقول: اِضرِبْ اِضرِبْ رَأساً طالما عَصى اللّه تعالى، وتكبَّر وتجبَّرَ، اِضْرِبْ عسى اللّه يغفر ويمحو ذنوبه. وكان إبراهيم في بغداد، كعادته بعد خروجه من مُلكِهِ، لا يأكل حتّى يجوع بشدّة، وإن أكلَ يأكل أقسى الخبز، ويحرم نفسه ممّا يحبّ من الطعام، وقيل عنه أنّه بقي عشرين سنة يشتهي أن يأكلَ الفولَ، وكان قادراً على تناوله، لكنّه مات ولم يتناوله. وكان يقول لِمَنْ يطلب منه موعظةً: يا معشَرَ العباد جَوِّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس، فبقدر أخذكم من شهوات الدنيا، ينقص عليكم من لذّات الآخرة، وما أخَذَ أحدٌ مِنَ الدنيا إلاّ على ثلاثة وجوهٍ: هَمٌّ وَ غَمٌّ وطُوْلُ حِسَابٍ.

---

(1) الطُّرَّ: الجماعةُ: يُقالُ: جاء القومُ طُرّاً، أي جميعاً دونَ أنْ يتخلَّف منهم أحدٌ.

(2) الإِرْبُ: العُضْوُ الكاملُ مِنَ الجَسَدِ، وَقطَّعَهُ إِرْبَاً إِرْباً: أي عُضْوَاً عُضْوَاً.

(3) التَّمْحِيْصُ: الابتلاءُ والاختِبارُ، وتمحِيْصُ الذُّنوبِ: تخليصُ الإنسانِ مِنْهَا.

(4) القَذْفُ: الرَّميَ بالحِجَارةِ والكلامِ البذيءِ.

وكان يقول: يا مؤمنين! اِرْضُوا من الدينا باليسير مع سلامة الدين، فالزهد في الدنيا ثلاثة حروف: فأمّا الزاي فهو ترك زينة الدنيا ومتاعها، وأمّا الهاء فهو ترك الهوى والرغبات، وأمّا الدال فترك الدنيا الدنِيَّة. فالدنيا أوّلها بكاء، وأوسطها عَنَاء وآخرها فَنَاء. ما تعلَّقَ الإنسانُ بها إلاّ من ضَعْفِ إيمانه وعقله، فكيف يتعلّقُ الإنسانُ بالفاني ويتركُ الخالدَ الباقي.

وكان إبراهيم يكره المال كثيراً، ويحاول ألاّ يبيتَ ليلته ومعه شيء منه حتّى إذا أصبحَ يعملُ ليجنيَ ما يكفيه يومه فقط وكان يقول: المَالُ سُمِّيَ مالاً، لأنّه استمال أهله عن طاعة الله تعالى، وجعلهم عبيداً له طائعين لأمره فيهم، وهو - أي المال - وَتَد كلِّ شرٍّ، لأنَّ الشرّ كُلَّهُ متعلِّقٌ به.

ومن أقواله أيضاً: مَنْ أكثرَ من المَنَامِ، لم يجدْ في عمره بركَةً، ومَنْ أكثرَ من الطعام، عُدِمَ لذّة العبادة، ومَنْ التفتَ إلى إرضاء الناس، عُدِمَ رِضا الله تعالى، ومَنْ أكثرَ من الغيبة والنميمة لم يَمُتْ على دين الإسلام، ومَنْ استعملَ النميمة خرج من الدنيا كافِراً. وقيل عنه أنّه وجد رجلاً في بعض الصحارى يتعبّد، فسلّم عليه وجلس قُرْبَهُ يتعبّد، دون أن يسأل أحدهما عن اسم الآخر، فلمَّا أتمَّا صلاتهما، قال الرجلُ لإبراهيم وقد عَرَفَهُ: ألا أعلمُكَ اسماً يغنيكَ عن كثيرٍ من صلاتك وعبادتِكَ؟ فقالَ إبراهيمُ: نعم. فعلَّمَهُ الرجلُ اسمَ الله الأعظَمَ، ثمّ اختفى، فصار إبراهيم يدعو به ربّه في كل حين، حتى رأى سيدنا الخَضِرُ (عليه السَّلاَمُ)، فقال له إبراهيمُ ما جرى معه، وأخبره خَبَرَ الرجلِ، فقال الخَضِرُ: إنّما علّمك أخي داود اسم الله الأعظم.

ويروي أبو حنيفة عنه: أنّ إبراهيمَ كان مع بعض أصحابه يتعبّدون فمكثوا فترة طويلة لم يجدوا ما يأكلونه، ثمّ مرُّوا بغيضةٍ[1] كثيرة الشجرِ وكانوا في يوم شتائي، فقال إبراهيم لأحدهم: ادخلْ هذه الغيضةَ واحضرْ لَنَا ما نَأكُلُه. فاستغرب القومُ طلَبَهُ في الشتاء. فدخلَ فوجد شجرةً عليها خوخٌ كثيرٌ، فملأ منه جُرَابَهُ وعاد مدهوشاً، ثمّ سأله إبراهيم! لو صبرت ودخلت أكثر لوجدتَ رُطباً جنيًّا، كما

---

(1) الغَيْضَةُ : الأَجَمَةُ، الغَابَةُ الصَّغِيْرَةُ كثيفةُ الشجر .

رُزِقَتْ مريمُ بنتُ عمران. وذُكِرَ أنّه مرَّ مع رفقة له، فإذا بسَبْعٍ عظيم يعترض عليهم طريقهم فخاف الجميعُ، إلاّ إبراهيم تقدَّم نحوه وقال له: يا قَسُوْرَةُ[1]! إنْ كُنْتَ أُمِرْتَ فينا بشيء، فامضِ لما أُمِرْتَ بهِ، وإلاّ فعَوْدُكَ على بدئكَ. فولّى السبعُ ذاهباً يضربُ بذنبه يُمنةً ويُسرةً، وَسْطَ دهشة الجميع، ثمّ أقبلَ إبراهيم على صحبِهِ فقال لهم: قُولُوا اللهمَّ احرسْنَا بعينكَ التي لا تنامُ، واكْنُفْنَا بكَنَفِكَ[2] الذي لا يُرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلِكَ وأنتَ رجاؤنا، يا اللّه، يا اللّه يا اللّه.

وصعد مرّةً جبل أبي قبيس بمكّة مع جماعةٍ للعبادة، فقال لهم: لو أنّ وليّاً من أولياء اللّه قال لجبَلٍ (زِلْ)، لَزَلْزَلَ. فتحرّك الجبلُ تحته، فوكزه برجله وقال: اسكنْ فإنّما ضربتُكَ مثلاً لمَنْ معي. وروى حذيفة المرعشي خبراً فقال: أَوَيْتُ أنا وإبراهيم إلى مسجدٍ خرابٍ بالكوفة، وكان قد مَضَى علينا أيّام لم نأكلْ فيها شيئاً، فقال لي: كأنّك جائع. قلتُ: نعم. فأخذ رقعة فكتَبَ فيها:

بِسْمِ اللّهِ الرحمن الرَّحِيم. أنتَ المقصودُ إليهِ بكُلِّ حَالٍ، المُشَارُ إليهِ بكلّ معنىً.

أَنَا حَامِدٌ أَنَا ذَاكِرٌ أَنَا شَاكِرُ ... أَنَا جَائِعٌ أَنَا حَاسِرٌ أَنَا عَارِي

هِيَ سِتَّةٌ وأَنَا الضَّمِيْنُ لِنِصْفِهَا ... فَكُنِ الضَّمِيْنُ لِنِصْفِها يا بَارِي

مَدْحِي لِغَيْرِكَ وَهْجُ نَارٍ خُضْتُهَا ... فَأَجِرْ عُبَيْدَكَ مِنْ دُخولِ النَّارِ

ثمّ قال لي: اخرج بهذه الرقعة، ولا تعلّق قلبك بغير اللّه سبحانه وتعالى وادفع بهذه الرقعة لأوّل رجل تلقاه. فخرجتُ فإذا برجُلٍ على دابَّةٍ، فدفعتُها إليه، فلمَّا قرأها بكى ودَفَعَ إليَّ ستمئة دينار وانصرفَ، فسأَلتُ رجلاً: مَنْ هذا الذي على الدَّابَّةِ؟ فقال: هو رجلٌ نصراني. فجئتُ بطعام وذهبتُ لإبراهيم فأخبرتُه، فقال: الآنَ يجيء ويسلمُ. فما كان غير قريب وقت حتى جاء، فأكَبَّ على رأسِ إبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ وأسلَمَ. فقال إبراهيم: دارُنَا أمامَنا، وحياتُنا بعد موتِنَا، فإمّا إلى الجنّة، وإمّا

---

(1) القَسْوَرَةُ : الأَسَدُ الضَّخْمُ .

(2) الكَنَفُ : الرِّعايَةُ، والكَنَفُ الذي لا يُرَامُ، أي الذي لا يُشْبِهُهُ ولا يماثِلُهُ شيءٌ .

إلى النار. وقال إبراهيم في غير مرّةٍ: مَرَرْتُ في بعض جبال الشام، فإذا حجر مكتوبٌ عليه بالعربية:

كُـــلُّ حَـــيٍّ وَإِنْ بَقِـــي فَمِـــنَ العُمْـــرِ يَسْـــتَقِي

فَاعْمَـــلِ اليَـــوْمَ وَاجْتَهِـــدْ وَاحْـــذَرِ المَـــوْتَ يَـــا شَـــقِي

فبينما أنا واقفٌ أقرأُ وأبكي، وإذا برجلٍ أَشقرَ أغبرَ، عليهِ مدرّعة من الشَّعْرِ، فسَلَّم وقال: مِمَّ تبكي؟ فقلتُ مِنْ هذا.

فأخذ بيدي ومضى غير بعيد، فإذا بصخرةٍ عظيمة مثل المحراب فقال: اِقرأْ وابكِ ولا تقصّر. وقام هو يصلّي، فإذا في ناحية من الصخرة قد كُتِبَ:

لاَ تَبْغِـيَنَّ جَاهَـاً وَجَاهُـكَ سَـاقِطٌ عِنْدَ المَلِيْكِ وَكُنْ لِجَاهِكَ مُصْلِحَا

وفي الجانب الآخر من الصخرة كُتِبَ:

مَـنْ لَـمْ يَثِـقْ بِالقَضَـاءِ وَالقَـدَرِ لاَقَـى هُمُومَـاً كَثِيْـرَةَ الضَّـرَرِ

وفي الجانب الأيسر نقش عربي يقول:

«مَا أَزْيَنَ التُّقَى وَمَا أَقبَحَ الخنَا[1]، وَكُلٌّ مَأْخُوْذٌ بِمَا جَنَى، وَعِنْدَ اللهِ الجزَا».

وفي أسفل الصخرة وفوق الأرض بذراع مكتوبٌ:

إِنَّمَـــا الفَـــوْزُ وَالأَمَـــلْ فِي تُقَـــى اللهِ وَالعَمَـــلْ

وقال إبراهيم: فلمّا فرغتُ من القراءة، التفتُّ فإذا الرجلُ ليس موجوداً حيث كان يصلّي، فلم أدرِ أهو انصرف بسرعةٍ دون أن أشعر به أو أنّه حُجِبَ عني وكان أحد أولياء اللّه الصالحين.

(1) الخنَا: الفُحْشُ وَالرَّذِيْلَةُ.

وقال ذات مرّة: إنّما يتمّ الورع بتسوية كلّ الخلق في قلبك، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلبٍ ذليل لربٍّ جليل، فكِّر في ذنبكَ وتُبْ إلى رَبِّكَ ينبتُ الورعُ في قلبكَ، واقطع الطمعَ إلاَّ من ربِّكَ. وليس من أعلام الحبّ أن تحبّ ما يبغضه حبيبُك فقد ذمَّ مولانا الدنيا مدحناها، وأبغضها فأحببناها، وزهَّدَنا فيها فآثرناها، ورَغبْنَا في طلباها، ووعدكم خَرَابَ الدنيا فحصنتموها، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها، وأنذركم الكنوز فكنزتموها، دعَتْكُم إلى هذه الغرَّارة دواعيها، فأجبتم مسرعين مُنَادِيَها، خدعتكم بغرورها وَمنَّتكم فانقدتم خاضعين لأمانيها، تتقلّبون في زهراتها وزخرفاتها وتتنعّمون في لذّاتها وتتقلّبون في شهواتها، وتتلوّثون بتبعاتها، تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها.

وكتبَ مرّةً إلى سفيان الثوري: مَنْ أطلق أمله ساء عمله، ومَنْ أطلقَ لسانَهُ قتلَ نفسَهُ، ومن أطلق بصرهُ طالَ أسفُهُ، ومَنْ عرفَ ما يطلب هان عليه ما يبذل، وخيرُ الناس من فَكَّ كفَّيْه وكَفَّ فكَّيْه. وكلُّ سلطانٍ لا يكون عادلاً فهو واللصّ بمنزلةٍ واحدة، وما ينبغي لِمَنْ ذلَّ للّه في طاعته أن يذلَّ لغير اللّه في مجاعته، فكيف بمَنْ هو يتقلّب في نِعَمِ اللّه وكفايتهِ. ثمَ قيل عن إبراهيم أنّه عاد إلى البصرة يَعِظ الناس، وقد بلغ الستّين من عمره، وثم دخل أرض الشام وقصد مدينة جبلة فمكث فيها لفترة، وثمّ توجّه إلى اللاذقية حيث انتقل إلى جوار ربِّه فيها وما يزال قبره فيها يزار من قِبَل الأهالي للتبارك، وقد بُني بعد ذلك مسجد قرب قبره سُمّي باسمه.

رضي اللّه عنه ورحمته عليه.

تَمَّتْ قِصَّةُ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ أَدْهَمَ وَسَبَبُ خُرُوْجِهِ مِنْ مُلْكِهِ وَبَعضُ أَقْوَالِه رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، والحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وَحْدَهُ لا شَرِكَ لَهُ.

obeikan.com

2 ـ قِصَّةُ أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ (τ)

هو أحمد بن هارون الرشيد، بن المهدي، وأمّا أمّه فيقول بعضهم أنّها الستُّ زُبيدةُ أمُّ الأمين والمأمون (وهذا هو الرأي الأكثر صواباً عندنا) وهناك قول آخر مفاده أنّ أم أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ هي امرأة أحبّها الرشيد فتزوّجها فحملت منه بهذا الغلام، ثمّ إنّ الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاها خاتماً من ياقوت أحمر، وأشياء نفيسة، وأمرَها إذا أفضت الخلافة إليه أن تأتيه، فلمّا صارت إليه الخلافة لم تأتِهِ ولا ولدها، بل اختفيا، وبلَغَهُ بعد مدّة أنّهما مَاتَا، ولم يكن الأمر كذلك، فبحث عنهما فلم يطّلع لهما على خبر.

وبما أنّ أحمد وأمّه لم يكونا معروفين للناس كأهل الخلافة، لذا فإنّ سنة ولادة أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ فيها عدّة أقوال: فمنها ما يرجّح أنّه ولد سنة (170 هـ، 793 م) وبعضها تقول أنّه ولد سنة (168 هـ، 791 م)، (وهذا هو الأصح عندنا). وأمّا وفاته رحمة الله عليه فهي مثبتة ومؤرّخة عند ابن كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) في سنة (184 هـ، 807 م) وقد عمل بالطين يوم السبت فقط، وكان يُقْبِلُ على العبادة بقيَّة أيّام الأسبوع، ومن هنا جاء لقبه بالسبتي.

وسنذكر في هذا المجال قصّته مع صالح البصري العابد الزاهد، وبداية خروجه من عند أبيه الرشيد وأمّه الست زبيدة، وكان يعيش حياة الترف والرفاهية، ثم ترك كل ذلك بعد سماعه قول صالح البصري.

قِصَّةُ أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ مَعْ صَالِحٍ البَصْرِيِّ

رَوَى صالح البصري العابد الزاهد أنّه بينما كان يمشي في شوارع بغداد متفكّراً في أمره وشأنِهِ، وفراقه لولده وأهله وبُعْدِهِ عنهم، وقلبه يقطرُ حزناً على فراقهم، إذ شاهَدَ أحمد بن هارون الرشيد، مقبلاً في عَبيده وخدمه وعسكره، مُتَبَاهٍ بشبابه وماله وجاهه، فتأمَّلَهُ صالح فإذا هو من أحسنِ الشباب جمالاً

ومظهراً، فلمَّا قرُبَ منه ناداه برفيع صوته: يا بْنَ هارون الرشيد! أراكَ متعلِّقاً بنواصي الدنيا، متمسِّكاً بآمال الفَنَاء ونسيتَ دارَ البقاء، وأهملتَ يومَ الأخذ بالنواصي والأقدام، فكأنَّك وقد نُقِلْتَ من قصرِكَ المشيَّدِ إلى التراب والصديدِ، ولو غَلَّقْتَ عليكَ ألف باب من الحديدِ، وتحصَّنْتَ بالأجناد والعديدِ ما منهم أحد ينفع، ولا كثرة أموالك تدفع.

فلمّا سمع أحمد ذلك الكلام، صرخ صرخةً عظيمةً ووقَع عن سَرْجِ فرسه إلى الأرض، فأَحْدَقت به الخَدَمُ والأجناد، ثم شرع يبكي بكاءً شديداً. فلمّا رأى صالح فزعه وخَوْفَهُ من الله تعالى وعقابِهِ، أشار إليه وأنشد أبياتاً من الشعر تقولُ:

لاَ تَأْمَنِ المَوْتَ فِي طَرْفٍ وَفِي نَفَسِ ... وَلَوْ تَمَنَّعْتَ بِالحُجَّابِ وَالحَرَسِ

وَاعْلَمْ أَنَّ سِهَامَ المَوْتِ صَائِبَةٌ ... فِي كُلِّ مُدَرَّعٍ مِنَّا وَمُتَّرِّسِ[1]

مَا بَالُ دينِكَ تَرْضَى أَنْ تُدَنِّسَهُ ... وَثوبك الدَّهر تغسلُهُ من الدنَسِ

فلمّا سمع أحمد هذه الأبيات صرخ صرخةً أخرى، فخافَ خدمه وعسكره عليه، وسألوه: ما حالُكَ.. وما الذي كادَكَ؟ فقال لهم: ما كادني أحدٌ، بل مؤدِّبٌ أدَّبني، وواعظٌ وعظني، يا قوم احملوني إليه كي أعرضَ دائي عليه. فحملوه، فلمّا صار بين يديه قال: يا شيخ زدني يرحمك الله، فقد وافق دواؤك جرحَ قلبي.

فأنشدَ صالح:

رَحِمَ اللهُ مَنْ قَرأَ خَطَّ كَفِّي ... وَدَعَا لي بالعَفْوِ وَالتَّخْلِيْصِ

كَتَبَ اللهُ بالفَنَا عَلَى خَلْقِهِ ... فَمَا عَنْ ورُودِهِ مِنْ محِيْصِ

---

(1) مُدَرَّعٌ: تعني محتمي بالدّرع ليقي نفسَه من الخطر.

وَمُتَّرِّسِ: تعني محتمي بالترسِ ليقي نفسَه من الخطر.

obeikan.com

سَـوْفَ تُفْنِـي الأيّـامُ كُـلَّ جَدِيْـدٍ   واللَّيـالي تُبيـدُ جَمْـعَ الحَـرِصِ

كَيْـفَ يَلتَـذُّ عَاقِـلٌ بمَنَـامٍ   وَالمَنايَـا بَـيْنَ جِلْـدِهِ وَ القَمِـيصِ

فلمّا سمع أحمد هذا الكلام اشتد بكاؤه وقال:

يا صالحُ! يا سيدي! أرجو من اللّه تعالى أن يكون شفائي على يديكَ.

فقال له: يا بُنيَّ! اعلمْ أنّ اللّه تعالى له داران وعبدان، فأمّا الدَّارانِ فهما الجنّة والنار، وأمّا العبدان فهما عبدٌ طائعٌ خاضعٌ، لأوامرِ ربِّه سامِعٌ، وعبدٌ عاصٍ وقلبُه قاسٍ. فبكا أحمد بكاءً شديداً وقال: يا شيخُ زدني يرحمك اللّه.

فأنشدَ صالحٌ:

المَـوْتُ بـابٌ وَكُـلُّ النَّـاسِ تَدْخُلُـهُ   يَا لَيْتَ شِعْرِي هَذَا البَابُ مَا الدَّارُ؟

الـدَّارُ دارُ نَعِـيْمٍ إنْ عَمِلْـتَ بِمَـا   يُرْضِـي الإلَـهَ وإنْ خَالَفْـتَ فَالنَّـارُ

هَاتَـانِ دَارَانِ مَـا لِلخَلْـقِ غيرُهُمَـا   فَـانظُرْ لِنَفْسِـكَ أيُّ الـدَّارِ تَخْتَـارُ

تُفْنِـي اللَّـذَّاتُ مَـنْ قَـدْ نَـالَ شَـهْوَتَهَا   مِـنَ الحَـرَامِ، وَيَبْقَـى الـوِزْرُ والعَـارُ

تَبْقَـى عَوَاقِـبُ سُـوْءٍ فِـي مَغِيبَتِهَـا   لاَ خـيرَ فِي لـذَّةٍ مِـنْ بَعْـدِهَا النَّـارُ

فأقبل أحمد على صالح البصري وقال له:

- يا شيخُ إنّ اللّه اطَّلَعَ على قلبي، فأحرقتْهُ حلاوةُ ذكرِهِ.

ثم وقف أحمد ونزع ما كان عليه من الخزِّ والحرير، والذهَبِ، وأخذ من أحد الفقراء جُبَّة من الصوف وأعطاه ثيابه، وأقبل نحو عساكره وجنوده وقال لهم: اذهبوا إلى أبي وقولوا له إنَّ ابنك أراد أن يسيحَ على وجهه في الأرضِ، فإن أردت رؤيته فأسرعْ إليه.

obeikan.com

فذهب بعضُهم مسرعاً إلى الخليفة الرشيد، ودخلوا عليه وقالوا له: يا أمير المؤمنين! حَرَسَ اللّه بكَ الدين، وجعَلَكَ من عباده المهتدين، وقرَّ بك العيون، وأحسن فيكَ الظنون. إنّ ولدك أحمد قد خَلَعَ ما كانَ عليه من الثياب الفاخرة، ولبس الصوفَ على جسده، وتعمَّم بمئزر من الصوف، وهو يقول لك: إن أردتَ وداع ولدك فأَسْرِعْ إليه. فلمّا سمع الرشيد ذلك الكلام، أقبل نحو ولده مسْرِعاً، ثمّ قال له: يا ولدي! كيف يقوى جَسَدُكَ على الصوف بعد رقيق الكتان وناعم الحرير؟

فقال أحمد: يا أبتِ! يا أمير المؤمنين لقد فكّرتُ في الموت وغصَّتِهِ وفي القبر وضيقته، ومنكر ونكير[1]، ومسألته، والدُّودِ وصولته[2]، والصراط ودقّتِهِ، فهان عليَّ لبس الصوف، وذكرتُ العَرْضَ والوقوف بين أيدي المَلِكِ الدائم الباقي المعروف، وهو اللّه تعالى الحليم الرؤوف، فهانَ عَلَيَّ ترك الأهل والأوطان.

فقال هارون: يا بُنَيَّ! أنا أبني لك ببغداد بيتاً تعبد اللّه فيه، وأُجْرِي عليك الصدقة كما أُجرِيْهَا على الفقراء والمساكين ولكن إِبْقَ بجانبنا ومعنا.

فقال له: يا أبتِ! أحبُّ أن أجوعَ كما كُنْتُ أشبع، وأصيرَ ذليلاً كما كنْتُ عزيزاً. فقال هارون: يا ولدي! لا صَبْرَ لي على فراقك، ولا أُطيق جفَاكَ وتحرقني نيران أشواقك، فكيف يا ولدي ويا حشاشة كبدي، ويا ذخري، ويا سندي، تقدر على فراقي وفراق أمِّك ويحلُّ لك من اللّه تعالى أن تكدّر عيشنا؟ فأنشدَ أحمد عند ذلك يقول:

أُفَارِقُ فِي الدُّنْيَا خَلِيْلي وَصَاحِبي	مَخَافَةً أنْ يَرْمُونِي فِي المَصَائِبِ
مُفَارَقَةُ الخِلاَّنِ أَهْوَنُ لَوْعَةً	عَلَيَّ مِنَ التَّوْبِيْخِ يَوْمَ أُحَاسَبِ
وأَهْوَنُ مِمَّا أَنْ يُنَادِي مُنَادٍ	خُذُوهُ فَغِلّوهُ فقد كانَ كَاذِبِ
إِذَا نُصِبَ المِيْزَانُ للفَصْلِ وَالقَضَا	هُنَالِكَ لاَ يَنْفَعُ خَلِيلِي وَصَاحبي

(1) منكر ونَكِيْرٌ: الملَكَانِ المُكَلَّفَانِ بحِسَابِ القبْرِ.

(2) الصَّوْلَةُ: التجوَالُ، وصَوْلَةُ الدُّودِ تعني تجوالهُ داخلَ جَسَدِ الميِّتِ.

ثمّ قال: لا بدّ لي من ذلك، وأنا أستودعك اللّه.

فمضى أحمد مع صالح البصري، فنادى هارون برفيع صوته: يا صالحُ، يا مَنْ لا تخيبُ عندَهُ الودائعُ.

فقال صالح: يا أمير المؤمنين! اللّه ألطفُ بعباده من أُمِّ الإنسان وأبيه.

فقال هارون: وأنتَ يا صالحُ تكون خليفتي عليه، إن عاش فسَاوِهِ بنفسِكَ، وإن ماتَ فوارِهِ الترابَ.

ثمّ بلغ الخبرُ ساعتَها زُبيدةَ أم أحمد، فصرخت صرخةً عظيمةً وخرَّتْ مغشياً عليها، وعندمَا استفاقتْ أنشدتْ تقولُ:

أَبْكـي علَيْـكَ ولاَ أُرِيْـدُ سِـوَاكَ ... أَسَـفاً عَلَيْـكَ ولا أُطِيْـقُ جفَاكَـا

وَيَـا نُـورَ عَيْنِـي يَـا عَزِيْـزِي إِننِّـي ... كَقَلْبِـي مُعَلَّـقٌ مُنَـيَتي بَوَلاكَـا

شـوقي إِليـكَ علَـى المَدَى صَبَابَةً ... كيـفَ السبيلُ إِنْ اِمتنعَـتْ رُؤْيَاكَـا

يَـا حَسْـرَتَاهُ عَلَـى العَزِيْـزِ، وَآهٍ لَـوْ ... مِـنْ بَعْـدِ مَـوْتِي كَـانَ مِنْـكَ ذَاكَـا

أُوْدَعْتُ شَخْصَكَ للذي خَلَقَ الوَرَى ... وَيُنِيْلُـكَ المَقْصُـودَ يَـوْمَ لُقَاكَـا

وَيُنِيْلُنِـي صَـبْراً جَمِـيْلاً سَـيِّدِي ... كَيْ تَطْمَئِنَّ النَّفْسُ عِنْدَ ذِكْرَاكَـا

أرْجُو مِنَ الرَّحْمَنِ يَجْمَعُ شَمْلَنَا ... لَـو مَـرَّةً ألْـثُمُ بهـا يُمْنَاكَـا

لمّا فرغت الستُّ زبيدة من هذه الأبيات ارتفع البكاء والصياح، وازداد في كلّ الأنحاء النُّواح، وعلِمَ البعيدُ والقريبُ، ثمّ أقبل أحمد على أبيه وقبّل يديه وضمّه إليه وودّعه، وقَبَّلَ يدي أمِّه فضمّته إلى صدرها وبكت كثيراً، فقال أحمد لهما:

يا والداي هذا الفراقُ فراقُ اشتياقٍ، والسلام عليكما إلى يوم التلاقي.

فقال هارون: يا ولدي هل تحتاج إلى شيء من النفقة؟

obeikan.com

فقال: يا أبتِ! لو أردتُ ذلكَ ما فارقتُك أبداً، ولكن أريدُ أن تدفعَ إليَّ الخاتمَ الذي في إصبعك والمصحف الذي تقرأُ فيه حتى أذكرك فيها ما عشتُ، وإن داهمني الموتُ أوصيتُ بردّهما إليك. فبكى هارون عند ذلك وأعطاه المصحف والخاتم. فأخذهما أحمد وسار بصُحْبَة صالح البصري يطوفُ معه البلاد، ويقطع الوهاد[1]، في طاعة ربّ العباد، إلى أن دَنَتْ من صالح الوفاةُ، فقعد أحمد عند رأسه، ونظر إليه فرآه قد عَرِقَ جبينُهُ، وامتدّ عرنينُه[2]، وقَلَّ أنينُه، واصفرَّتْ منه الوجنتان وامتدّ الحاجبان، فبكى أحمد بكاءً شديداً، وقال: أَصَالحُ! يا سيّدي، قد بقيتُ في هذا الدّار وحيداً، وبين الخلق فريداً فمَنْ يكونُ لي بعدك نصيراً عضيداً؟

فقال صالح وهو يَنْزَعُ: يا بنيّ! خلَّفتُكَ لِمَنْ هو أرحم منّي بك، وأشفق عليك من والديك، هو الله الذي لا إله إلاّ هو، يرشدك إلى الطريق الواضح، ويمدُّكَ بالعقل الراجح، يا بنيَّ! إذا تجرّعْتُ غصصَ الموتِ وقضيتُ نحبي، ولحقتُ بربِّي، لا تواريني تحت التراب ولا تكفنِّي، بل اقرأ عليّ من آيات الكتاب، ثمّ اتركني فإنّ الله سيتولّى أمري ويوفيني أجري، واقصُدِ البصرة فإنّها مسكنُ العبّادِ، فإنّك تفوز بينهم بالمراد. ثمّ إنّ صالحاً قد لحق بربِّه وقضى نحبه، وسلّم أمانته وسار بدرب نجاته وخلاصه. فاستوحش أحمد إذ حلَّ الليلُ وَحْدَهُ دون صاحبٍ أو خليلٍ، فقال بعض الأبيات وهو يبكي:

كَيْفَ صَبْرِي عَلَى فِراقِ خَلِيْلِي — وَعَزَائِي عَلَى الحَبِيْبِ الخَلِيْلِ

يَا دَلِيْلِي إلى سَبِيْلِ نَجاتِي — سَوْفَ أبْكِيْكَ بالنَّحْبِ الطَّوِيْلِ

كُنْتَ لَي وَالِداً شَفِيْقاً رَفِيقَاً — وَدَلِيْلاً إِلَى الهُدَى والسَّبِيْلِ

فَعَلَيْكَ السَّلامُ مِنِّي دوَامَاً — ثُمَّ إِلَى الحَشْرِ، خَيْرُ مُنِيْلِ

---

(1) الوِهَادُ: الأَراضِي المُنخفضةُ كأنّها حفرةٌ بينَ الجبالِ.

(2) العِرْنِينُ: الأنفُ كُلُّه، أو ما صَلُبَ مِنْهُ العَظْمُ حَيْثُ يكونُ الشَّمَمُ.

وبينما أحمد متفكِّرٌ في أمرِهِ، ماذا يفعل بجسد صالح المتوفَى أمامه، هل يستمع لكلامه ويتركه دون كَفَنٍ أو دَفْنٍ أم يدفنُه دون غَسْلٍ أو كَفَنٍ وهو في هذه البريّةِ وحيدٌ لا يملكُ ماءً كافياً أوأكفاناً، وإذ بثلاثةِ رجالٍ قد أقبلوا عليه من صَدْرِ البريَّةِ، فلمَّا وصلوا سلَّموا عليهِ، فَردَّ السلام مستغرباً قُدُوْمَهُم فرِحاً بما يحملونه، ثمّ أخدوا في غسيل جسدِ صالح وكفّنوه ثمّ صلّوا عليه صلاة الجنازة ودفنوه (رحمة اللّه عليه)، وأقبلوا على أحمد وقالوا له: لا تستغربْ ما رأيتَ وشاهدتَ، إنَّنا من عباد اللّه الذين في الأرض متجوّلون فإذا مات أحد العُبَّاد الصالحين، ولم يكنْ مَنْ يدفنُهُ في أي موضع كان يرسلُ اللّه سبحانه إلينا مَنْ يعلِمْنَا به، فنأتي حاملين الكَفَنَ ومستلزمات الدَّفْنِ ونفعلُ كما رأيتَ.

ثمّ تركوه وانصرفوا، فحمدَ أحمدُ اللّه على فضلِهِ وعَلِمَ معنى قول صالح لهُ أَنَّهُ وكَّلَهُ إلى مَنْ هوَ أشفق عليه من والديه. لكنّه بقي متحيِّراً في أمره لا يقرُّ له قرار، أينَ يذهب وكيف؟! فبعثَ اللّه سبحانه رجلاً من بعض النواحي متوجِّهَاً إلى البصرة، فسار معه حتّى أشرف على البصرة وهو ساكتٌ طوال الطريق يتمتمُ بكلام غير مفهوم. وكان هذا الرجل قد سلَّم على أحمد لحظة لاقاه متحيّراً، وقال له: اتبعني.

ولم يتفوَّه الرجل بكلمة غيرها حتّى وصلا مشارفَ البصرة حيث قال الرجل له: هذه البصرة، ادخلْها، عليكَ رحمةُ اللّهِ ورضوانه. رغم أنّ أحمد لم يخبر الرجلَ عن مَقْصَدِهِ وغايتهِ. فنظر أحمد إلى البصرة وقال: إنّها غَايةُ مقصدي، ففيها مساكِنُ العُبَّاد كما قال الشيخُ صالحٌ رحمهُ اللّهُ. والتَفَتَ نحو الرجلِ ليشكرَهُ على إرشاده فلم يجدْهُ، فقد اختفى فجأة كما ظهرَ، فاستغرَبَ أحمدُ وشكرَ ربَّهُ الذي لم يتخلَّ عنه، ويرسلُ له دائماً من يساعده ويكون عوناً له.

ثمّ دخَلَ البصرةَ وجعلَ ينادي وهو يدور فيها: يا نيام استيقظوا من الغفْلَةِ، ما دامَ في الوقتِ مهلةٌ، اليوم عملٌ بلا حِسَابٍ، وغداً حِسَابٌ بلا عَمَلٍ.

فكان الناس عند سماعهم مناداته، يوقفون أشغالهم ويُقْبِلُونَ عليه وينظرونَ إليه، وإلى عذوبةِ منطِقِهِ، وحُسْنِ وجهه ثم يغادرون، ومضى أحمد في مناداته يطوف

أنحاء البصرة، لا يسأل الناس شيئاً ولم يكن معه ما يأكلُهُ، حتّى أخذَ عليه الجوعُ، ولم يعدْ يقوى على السير، فمضى إلى سوقِ القُطْنِ، وأقْبَلَ على شيخٍ لا يعرفه يُقَالُ له (عبد اللّه القطّان) فسلَّم عليه، فَرَدَّ عبدُ اللّهِ السَّلامَ، فقال أحمد: يا سيّدي! أنا غلام غريب، ولا أعلم من مكاسب الدنيا شيئاً، فهل لكَ أن تقرضني ثمنَ سلَّةٍ أشتريها وأحملُ فيها للناس بأجرةٍ أعتاشُ منها؟ وإن أعطيتَ شكرتُ، وإنْ منعتَ صبرتُ.

فقال الشيخُ: يا غلامُ! لا تبدو عليك آثار الحَمْلِ والجَلَدِ على ذلكَ، وإنّي أراكَ رقيقَ العودِ، طريَّ الجَسَدِ، فكيفَ يمكنك أن تقوى على العملِ المُجْهِدِ؟ واعلمْ أنَّني رجلٌ كبيرُ السنِّ، ولي مالٌ كثيرٌ، وعندي بنتٌ وحيدةٌ ذات حُسْنٍ وجَمَالٍ، وبهاءٍ وكَمَالٍ، فهل لكَ أن أزوِّجَكَ بها، وأنا أقفُ بين أيديكما أقدّمُ لكما ما تحتاجانه، وأخدمكما إلى أن يحكمَ اللّهُ عليَّ بحُكمِهِ النافذِ الذي لا مَرَدَّ منهُ؟

فقال أحمدُ: بَيَّضَ اللّهُ ثناكَ، وشَكَرَ اللّهُ مسعاكَ، ولكن يا شيخُ نعمتُكَ تزولُ، ولا خير في نعمةٍ تزولُ ولذَّةٍ تحُولُ، وليسَ لي قَصْدٌ من الدنيا محصولٌ، بل أنا منقطعٌ إلى خالقي بالكليَّةِ، ومقرٌّ له بالوحدانيَّة، مُتَطلِّبٌ منه نَيْلَ قصْدي بالوصولِ وبلوغ المأمولِ.

ثمّ هَمَّ أحمد بالانصراف، فقالَ له الشيخُ: وَفَّقَكَ اللّهُ إلى جزيل ولاه، قِفْ وخُذْ ما تريدُ. فأخذَ أحمدُ درهماً واحداً وقال: يا شيخُ! أ هذا الدرهمُ قُرْضَةٌ أم صَدَقةٌ؟ فقال له بعد أن رأى منه ما رأى وخافَ ألاَّ يقبلَه: هو قرضةٌ تعيدُه ساعةَ تريد.

فأخذ أحمد الدرهم وسار في السوق، واشترى سَلَّةً، وجعل يحملُ فيها للنَّاسِ حاجاتهم، فمَنْ أعطاهُ شَكَرَ، ومَنْ مَنَعَهُ صَبَرَ. ثمّ أعادَ الدرهم للشيخ عبد اللّه، وتعوّد زيارته كلَّ أسبوع مرَّةً، وقدْ نَشَأَتْ بينهما مودَّةٌ وصداقةٌ. ثمّ انقطع خبر أحمد عن عبد اللّه لفترةٍ، فسأَلَ عنه، فقيل له: إنَّه يعمل مع البنَّائين يحملُ الطينَ بسلَّتِهِ. فذهب عبد اللّه إلى سوق الفَعَلَةِ[1]، فوجده قد لَبِسَ جبَّة من الصوف، فقال له:

---

(1) الفَعَلَةُ: ج فاعِل وهو العامِلُ بالبناءِ والطين والحَفرِ.

يا حبيبي ويا صديقي! أتعملُ في الطين ومَالَكَ قدرةٌ على ذلك ولا جَلَد؟

فقال: إني أعمل يوماً واحداً تكفيني أجرتُه أسبوعاً.

فقال عبد اللّه: لِمَا انقطعت عن زيارتي، وكنتَ تزورني أسبوعياً؟

فقال: يا سيدي، الوقتُ ضيّقٌ، وأخافُ أن أقصِّرَ تجاه خالقي.

فردَّ عليه: أنا أزورك إن شاء اللّه. فأنشد أحمد يقول:

أَرَى الـــدُّنْيَا تَـــؤُولُ إلى النَّفَـــادِ   وَأَهْـــلُ الـــودِّ مِـــنْ أَهْـــلِ الـــوِدَادِ

فَشَـــمِّرْ وَاجْتَهِـــدْ تَلْـــقَ رَشَـــاداً   وَلا تَفْعَـــلْ فتنـــدمْ فِي المَعَـــادِ

وبقيَ عبد اللّه القطّان يزوره في ذلك السوق، ويعرف أخباره مدّة من الزمن، ثم مرض عبد اللّه فانقطع عن زيارة أحمد شهراً، وبعد أن تعافى ذهبَ إلى السوق وسأل عنه فقيل له أنّه قَدْ مَاتَ، وشَرِبَ شرابَ الآفاتِ وتولّى أمره رجلٌ يقال له اسحق، فحزن عليه حُزْناً عظيماً وبكى على شبابه كثيراً، ثمّ قرَّر أن يمضي إلى اسحق ليعرف خبر موته، فذهب وسأل عن اسحق الشيرازي، فأرشدوه إلى داره، فوقفَ على البابِ وطرَقَهُ، فجاءَهُ صوتٌ من الداخل: مَنْ فِي البابِ؟

فقالَ: عبدُ اللّهِ القطّان.

ففتح الباب وخرج إليه شيخٌ كبيرُ السّنِّ، حَسَنُ الهَيْئَةِ والمنظَرِ، عَلَيْهِ نورُ الإيمان، ودلائل عباد الرحمن، يحيا حياة العبادة والصلاح ويسيرُ بدرب النجاة والفلاح. فسأله: هل لكَ من حاجةٍ عندي، أقضيها لك إن شاء اللّه؟

فقال عبدُ اللّه: هل تعلم لي خبر غلامٍ، حَسَنِ الوَجْهِ، نحيلِ الجسمِ، صائم الدهر لباسُه الصوفُ، كثيرِ البكاء، دائم النوحِ والشَجاءِ[1] يعمل في الطين من السبت إلى السبت، بدرهم ودانقين، يأكل بالدانقين[2]، ويتصدّق بالدرهم؟

فلمّا سمع اسحق كلام عبد اللّه بكى بكاءً شديداً وقال: واحزناه!، وأسفاه! على

---

(1) الشَّجَاءُ: الشَّجْوُ: أي الهَمُّ والحزْنُ.

(2) الدَّانِقُ: سُدْسُ الدِّرْهَمِ.

ذلك الغلام. لقد قضى نحبَهُ، ولحق بربِّهِ رحمةُ اللّهِ عليه، لم أعرفْ مثله طوال حياتي. فمن أينَ تعرفُه وهو شابٌّ غريبٌ لا يأْنَسُ إلى خلٍّ أو حبيبٍ؟

فقال عبد اللّه: إنّه لمّا دخل البصرة، أتى إليَّ مرّة وقال لي أقرضني درهماً أشتري به سلّةً.... وقصَّ عبدُ اللّه على اسحق ما جَرى، ثمّ قال له: وعندما عرفتُ أنّكَ تولّيتَ أمرهُ بمماتِهِ أتيتُ أسألكَ عن خبرهِ.

فقال اسحقُ: يا شيخُ حديثُهُ يطولُ، ويكثُر فيه القولُ، فإن كُنْتَ تريدُ أنْ تسمعَ ما جرى له، أدخلْ معي إلى منزلي حتّى أحدّثَكَ حديثه، وأخبركَ خبره. فدخلَ عبدُ اللّه معه إلى المنزل، ولمّا استقرّ بالجلوس قال له: هات حدثني خبره وكيف مات.

فقال اسحق: اعلمْ أنّه كانَ لي بُنيَّةٌ زاهدةٌ في الدنيا، فدخلتُ عليها ذات يومٍ فوجَدْتُها جالسةً في محرابها تبكي بكاءً شديداً، فقلتُ لها: ما الذي أبكاكِ يا بُنَيّتي؟

فأجابت: يا أبتِ، لقد تفكّرتُ في الموت وغصّته، والقبر وضيقته، ومنكر ونكير ومسألته، والدود وصولته، والصراط ودقّته.

فقلت لها: يَا بُنَيّتي! لقد فكَرتِ في شيءٍ عظيم ويتفكّر فيه المتفكِّرون، ويعتبر فيه المعتبرون. فقالت: يا أبتِ! ما جزاء من عَصَى اللّه؟

فقلتُ: نارٌ حرّها شديد، وشرابُ أهلها من الصديد، حتّى إذا حلّوا في قرارها، وظنُّوا أنهم ناجون من لَسَعَاتِ عقاربها وحياتها، قذفتهم إلى سعيرها، فهي كما قَالَ اللّه تَعَالَى عنها في كتابه العزيز: W

((إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً {4})). C الإنسان

فقالت: وما ثوابُ مَنْ أطاعَ اللّه تعالى؟

فقلتُ: جَنَّةٌ وحرير، لباسُ أهلها السندس[1] والإستبرق[2]، وفُرشُهم الديباج الوثير، وهي كما قال عنها تعالى: (جَنَّاتُ عَدنٍ مُفَتَّحةُ الأبوَابِ).

---

(1) السُنْدُسُ: نوعٌ من الحريرِ الرقيقِ، والديباجِ الملوَّنِ.

obeikan.com

فقالت: يا أبتِ أعلمُكَ أنَّ لجيراننا ولدٌ قد بلغ مبالغَ الرجال، وهو كل يوم يشرف[1] عليّ مرّة ومرتين، فتارة أكون أصلّي وتارة أكون راكعة، من حيث لا أعلم به. فقلتُ لها: يا بُنيّة! السترةَ منهُ، فإنّ السترة عند اللّه بمكانٍ عظيمٍ، ثم قرأتُ لها:

W ((قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ {30})) C سورة النور

فقالت: يا أبتِ إنَّه يفعلُ ذلكَ عامداً، قاصداً اختلاس النَّظرِ.

فقلتُ: إذا كان الأمر كذلك، فغداة غدٍ آتيكِ بصانعٍ يبني بيننا وبينه جداراً يحجبُ الرؤيةَ عنهُ، فلا يعود يراك ولا ترينه.

فقالت: يا أبتِ لا تأتيني إلاّ بصانع يكون كثير الخير، قليل الشرّ، لا يفترُ لسانُه عن ذِكْرِ اللّه تعالى.

فلمّا أصبحتُ نهضتُ وصلَّيْتُ، وأتيتُ سوقَ الفعَلَةِ، فوجدتُ ثلاثين عاملاً جالسين، فالتفتُّ يميناً وشمالاً، ثمّ ناجيتُ منهم شابّاً حَسَنَ الشباب، نحيلَ البَدَنِ، دقيقَ العظمِ، عليه أثرُ النعمةِ، وهو لابسٌ صوفاً، وبين يديه سلَّةٌ، وهو لا يحلُّ من ذكر اللّه تعالى، فسلَّمتُ عليه، فَرَدَّ السلامَ وهو مطرِقٌ إلى الأرض، وهو يبكي ويُنْشِدُ:

---

(2) الإستبرقُ : نوعٌ من الحريرِ الغليظ المزيَّن بالذهبِ .

(1) يشرف : يُطِلُّ من مكانٍ مرتفعٍ .

تَغَرَّبْـتُ عَـنْ أَهْلِـي فَبِـتُّ مُشَـرَّدَاً		وَحِيْـــداً فَرِيْـــداً فِـــي الــبِلاَدِ أَدُوْرُ
وَلـي وَطَـنٌ مَـا رَأَيْتُ فِي الأَرْضِ مِثْلَـهُ		وَلَكِــنُ أَحْكَامَـــاً جَـــرَتْ وَأَمُـــوْرُ
لأَنَّ قَضَا الرَّحْمَنِ فِي الأَرْضِ سَابِقٌ		وَرَبِّـــيَ عَلِـــيْمٌ وَمَـــا يَشَـــاءُ قَـــدِيْرُ

فلمّا أتمّ شعره قلتُ له:

يا غلامُ! هل لكَ أن تعمل معي اليومَ؟

فقال: للعمل خُلِقْنَا لو عَقِلْنَا.

فقلتُ: ما سألتُكَ عن عمل الآخرة، ولكن أسألك عن عمل الدنيا.

فقال: نعم.

قلتُ: غرضُنَا أن تعملَ جداراً حاجزاً بيننا وبين جيرانٍ لنا لم يعرفوا حق الجار.

فقال: أوافقُ، ولكن على شرط.

قلتُ: وما شرطُكَ؟ قال: لا تحمّلني ما لا أطيق، وأن تدعني أصلّي الصلاة على أوقاتها. وأنا أجبل الطين، وأشيلُ بالزنبيل، وأستعينُ بربِّ العالمين، فإذا أوفيتُ العمل توفيني أجرتي.

فقلتُ له: وما أجرتُكَ؟

قال: درهم ودانقان.

فأجبته: توكلنا على الله، فَسِرْ معي ولا بأس عليك.

فقال: بسم الله والحمد لله، ثمّ سار ورائي يتبعني، وبينما نحن سائرون وإذا بجنازة تمرُّ أمامنا، فوقفنا، ولمّا نظر إليها تنفَّس صُعُدَاً[12]، وتنهَّدَ كمداً، وقرأ: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتَ...) ثم أنشد:

نُـروَّعُ بالجنائزِ كُلَّ يَومٍ ... وَيُحْزِنُنَا بُكَاءُ النَّائِحَاتِ
كَأغْنامٍ أَغَارَ الذِّئْبُ فيهَا ... فلمّا عَادَ عَادُوْا رَاتِعَاتِ
نَسَوْا المَوْتَ ما ذَكَرُوهَ يَوْمَاً ... وَمَا عَلِموا بِأَنَّ المَوْتَ آتِ
وَلاَ يَوْمَ الحِسَابِ هم يَخَافونَ ... ولا ذَكَروا عَذَابَاً مِنْهُ آتِ

ثم بكى بكاءً شديداً، ونادى: واغربتاه!... واحسرتاه على ما فرَّطْتُ في حقّ الله عليَّ، ثمّ جعل يقول:

---

(12) الصُّعُدُ أو الصُّعُدَاءُ: التنفسُ الطَويلُ الذي يرافقهُ التحسُّرُ والتَّأَوُّهُ.

غَرِيــبٌ شَــجَاهُ البَــيْنُ وَهُــوَ مُوَلَّــعُ   بَعِيْـدٌ عَـنِ الأَوْطَـانِ ضَـاقَتْ مَذَاهِبُـهُ

تَغَــرَّبَ عَــنْ أَوْطَانِــهِ فتَفَجَّعَـــتْ   لِفُرْقَتِـــهِ أَحْبَابُـــهُ وَقَرَائِبُـــهُ

فَيَا وَيْحَ مَنْ أَمْسَى عن الأَهْلِ هَارِباً   وَطــوبى لِمَــنْ قَـدْ يَفْقِـدُهُ أَحْبَابُــهُ

فَلَـوْ مَلَـكَ الـدُّنْيَا غَرِيـبٌ لَمَا صَفَتْ   لَــهُ بفــراقِ الأهــلِ يَومــاً مَشَــارِبُهُ

إِذَا مَــا خَطَــرَ تَــذكَارُهُمْ بِفُــؤَادِهِ   جَـرَى دَمْـعُ عَيْنَيْـهِ وَفَاضَـتْ سَـوَاكِبُهُ

لِكُـلِّ اِمْـرِىءٍ خِـلٌّ وَإِلْـفٌ وَصَـاحِبُ   وَكُـلُّ بَعِيْـدِ الـدَّارِ فَـالحُزْنُ صَـاحِبُهُ

فَــآهٍ مِــنَ البَــيْنِ المُشــتّتِ شَـمْلَنَا   وآهٍ عَلَــى عَــيْشٍ تَقَضَّـتْ أَطَايِبُــهُ

وتابعنا سيرنا فلمّا وصلنا الدار، قرأ:

W (ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ {46}) C سورة الحجر

ثم أوقفتهُ على حدود العمل، فلَمسَ التراب وقرأ:

W ((مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى {55})) C سورة طه

ثمّ شدَّ وسطه وجعل يعمل في الطين، ثمّ قرأ:

W ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنَ الطِّيْنِ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفةً في قرارٍ مَكِيْنٍ...)) C سورة المؤمنون

ولم يزلْ مجداً في العمل إلى وقت صلاة الظهر، فلمّا أُذِّنَ نفضَ يديه من الطين، وتوضَّأَ وصلَّى، فلمَّا انتهى عرضتُ عليه الطعام فأبى أن يأكلَ شيئاً، وأقبلَ على

openkan.com

العمل مجدّاً حتى المغرب، فلمّا سمع الآذان صلّى ثم قال: يا شيخُ قد وفَّيتُ لك العمل، فَوفِّ لي أجرتي يرحمك الله.

فدخلتُ إلى زوجتي فقلتُ لها: إنّي أرى أثر العبادة على هذا الشاب، فهل نعصي عليه أجرتَه ونستخبره حتى يبيّن لنا زهده؟

فأبقيتُ من أجرته في الميزان بعضاً من الدراهم حتى نرى ما يقول فقال: يا شيخُ! هل كان في عملي تقصير؟ فو الله هذان الدانقان حظّي من الدنيا والدرهم حظّي من الآخرة، ثمّ ولّى هارباً، فتبعتُه فلم ألحقْهُ، فرجعتُ إلى منزلي متفكّراً في أمري، وَبِتُّ ليلةً طالتْ عليَّ وأنا ألوم نفسي على ما فعلتُ، إلى أن أصبحتُ، فصلَّيتُ الصبحَ وذهبتُ إلى سوق الفَعَلَةِ فوجدتُ بعضَهم فقلتُ لهم: بالأمسِ كان هنا غلامٌ وعليه جبّة صوف فأينَ هو؟

فأقبل بعضُهم على بعضٍ وقالوا: عَسَاكَ تطلبُ أحمد السبتي؟

فقلتُ: هل هو يهودي حتى تقولوا عنه السبتي؟

فقالوا: لا. واللهِ ما هو يهودي، ولكنّه رجلٌ صالحٌ يعملُ يوم السبت فقط ويقضي بقيّة أيّامه متعبّداً، يأخذ أجره درهماً ودانقين يتصدّق بالدرهم ويأكل بالدانقين.

فرجعت إلى منزلي ومكثتُ إلى يوم السبتِ، وخرجتُ إلى السوق لأُحضِرَ عاملاً يتمُّ لنا العملَ. فقالت لي البُنيَّةُ: يا أبتِ! باللهِ عليكَ ألا تحضرَ لنا إلاّ الصانعَ الذي كان عندنا. فقلتُ: ولم ذلك؟ قالت: لأني نظرتُ إليه وهو يعملُ، وكذلك وهو يُصلِّي فكانَ كُلَّمَا سَجَدَ ورَكَعَ ارتفعَ البناءُ إلى فوق. فقلتُ لها: لقد زِدْتِنِي فيه رغبةً يَا بُنَتي.

ثم ذهبتُ إلى سوق الفَعَلَةِ، فسَلَّمْتُ عليهم وقلتُ لهم: يرحمكم الله هل رأيتم السبتي اليوم؟ فقالوا: ما رأيناه اليوم، ولا السبت الماضي فلَعَلَّ عنده عذرٌ أخَّرَهُ عن القدوم للعمل، فهذا ليس من عادتِهِ، فجلستُ عندهم أنتظرُ، ولمّا تأخّر الوقتُ بالانتظار قلتُ لغلامٍ منهم: هل تعرف أين يأوي السبتي ولك عندي أجرة يومٍ؟ فقال

obeikan.com

الغلامُ: يا شيخُ معاذ الله أن آخذ منك أجرةً على الإرشاد إلى مكان ذلك الغلام الصالح الزاهد. فعهدي به يسكنُ المساجد المهجورة ينظف طرق المسلمين، ويسقي الأيتام ويعمل يوم السبت بخلاف اليهود ويسكنُ خرائب المدينة. ثمّ سار الغلامُ بين يديّ إلى آخر خراب المدينة حيث أوقفني على السبتي، ثمّ تركني ذلك الغلام ومضى في حاله ثمّ إنّي وقفتُ على باب الخرابة، وإذ ببكاءٍ يخرجُ وقائلٍ ينشدُ:

ضَجُورٌ مِنْ مُشَاهَدَةِ الرِّجَالِ ... نَحِيلُ الجِسْمِ مِنْ فَرْطِ السُّؤَالِ

عَلِيلٌ لَيْسَ فَوْقَ الأَرْضِ مِنْهُ ... مِنَ الكَدِّ الشديدِ سِوَى الخَيَالِ

يَرَى قُصْرَ النَهَارِ عَلِيْهِ طُوْلاً ... فيُسْلمُهُ إِلَى ظُلَمِ اللَيَالي

إذَا ذَكَرَ الذُّنُوبَ بَكَى عَلَيْهَا ... بِدَمْعَةٍ شَدِيْدَةِ الإِنْهِمَالِ

صِيَامُ الدَّهْرِ أَوْرَثَهُ سِقَاماً ... وَغَيَّرَ مَا يُرَى مِنْ سُوْءِ حَالِ

فَإِنَ الصَّبْرَ أَحْسَنُ مَا يُرَجَّى ... بِهِ الإِنْسَانُ مِنْ أقوى السؤَالِ

إلى مَنْ يَرجِعُ المَمْلُوكُ إِلاَّ ... إلى مَوْلاَهُ يَا مَوْلى المَوالِي

فلمّا دخلتُ عليه رأيتُه يعالج سَكَرات الموت، وهو يقول: لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنة. وكان السبتي ملقىً على قطعة بالية وتحت خدّه لَبِنَةٌ من الطين اليابس، وقد أكلتْ نعومةَ خدّه. فقعدتُ عند رأسه، فلمّا رآني قال لي: يا شيخُ اسحق! ما الذي أتى بك إلى هذا المكان؟

فقلتُ: يا حبيبي أتى بي الشوقُ إليكَ، فكيفَ أنتَ يا مولاي؟

فقال: قد قَرُبَ الرحيلُ ودنا التعجيلُ، ثمّ قرأ: وكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتَ. وأغشي عليه، فرفعتُ رأسه في حِجْري، ومسحتُ وجهه بيدي، ففتح عينيه وقال لي:

يا اسحق! هذا هو الفراق، فمتى يكون التلاقي؟

فقلتُ له: يا حبيبي هل لك من حاجة؟ فقال: أَوَ تقضيها؟!

فقلتُ له: إن شاء الله. فقال: أريدك أن تطوّلَ عمري وتفسح لي أجلي وتدخلني الجنة.

فقلت له: يا حبيبي وهل يقدر على ذلك إلاّ الله تعالى؟

فقال: يا بَطّالُ! وهل صدَّقتَ أنّي أحتاج بشراً؟ ما لي إليك حاجة.

فقلتُ: لكَ عندي بقية أجرة ذلك اليوم وهو حقُّكَ.

فقال: لا حاجة لي فيها، بل تصدَّقْ بها على الفقراء والمساكين. ارفع هذه البالية وانظر ما تحتها، وجعل يبكي ويقول شعراً:

أَرَى كُلَّ مَوْلُودٍ إِلَى المُوْتِ يُوْلَدُ ... وَلَسْتُ أَرَى حَيَّاً يَعِيْشُ مُخَلَّدُ

تَجَرَّدْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ سَوْفَ ... مَا تخرجُ من الدُّنْيَا إِلاَّ وَأَنْتَ مُجَرَّدُ

ثم أعطفَ بأبياتٍ أخرى فقال:

دَمْعُ العَيْنِ عَلَى الخُدُوْدِ يَسِيْلُ ... وَالعُمْرُ يَنْفَذُ وَالنَّعِيْمُ يَزُوْلُ

وَإِذَا أُعْطِيْتَ وِلايَةً فَاعدِلْ بِهَا ... وَاعْلَمْ أَنَّكَ بَعْدَهَا مَعْزُوْلُ

وَإِذَا رَأَيْتَ جَنَازَةً مَحْمُوْلَةً ... فَاعْلَم أَنَّكَ بَعْدَهَا مَحْمُولُ

وَإِذَا رَأَيْتَ أُمُوْرَ قَوْمٍ سَاءَتِ ... فَاعْلَم بأَنَّكَ عَنْهُم مَسْؤُولُ

فَاعْمَلْ لِدَارٍ لا يَزولُ نعيمُهَا ... خَيْرُهَا دَائِمٌ وَرَغَدُهَا جَزِيلُ

فلمّا أتمّ هذه الأبيات، رفعتُ رأسه من حِجْري، ووضعتُهُ على اللَّبنةِ ورفعتُ طرف القطعة البالية وإذا تحتها كتابٌ بخطِّهِ ومصحفٌ وخاتمٌ فقال لي: إذا قضيتُ نحبي، ولحقتُ بربِّي، كَفِّنّي بهذه العباءة، وصَلِّ عليَّ في جماعةٍ غرباء، وواروني التراب، وأريد منك أن تحثّ السير إلى دار السلام (بغداد) وتدفع بهذا الخاتم والكتاب والمصحف لأمير المؤمنين هارون الرشيد وتقول له: ابنُكَ الحبيب أعادَ الأمانة أيّها الحبيب، هو الآن سَلَّمَ الأمانة لأعزِّ وأغلى حبيب.

فقلتُ وقد استغربتُ أنّ هذا الغلام النحيل المتعب، العابد الزاهد يكون ابن الرشيد أمير المؤمنين: أَفْعَلُ إنْ شاء اللّه وهل لك حاجة أخرى؟

قال: نعم. ناشدتُكَ اللّه إذا رأيتني قد عرق مني الجبين واشتدَّ عليَّ الأنين، اقرأ عليّ سورة (يس)، وإذا خرجتْ من الجسدِ الروحُ، ضَعْ رجلك اليمنى على خدّي واسحبني إلى آخر الخرابة، ونادِ عليَّ: هذا جزاء من عصى اللّه تعالى. عسى أن ينظر إليَّ بعين الرحمة فيرحمني.

ثم لبث ساعة واحدة بعد هذا الكلام، وقضى نحبَه، ولحقَ بربّه رحمة اللّه عليه. فعند ذلك حاولتُ رَفْعَ رجلي لأضعها على خدّه كما أمرني، وكنت مرغماً على ذلك، وإذا بهاتفٍ يقول مُدَوِّياً: أتضعُ رجلك على خدِّ وليِّ اللّه، الذي لم ينكشفْ له ذيل ثوبٍ لا حلال ولا حرام؟

فعندما سمعتُ ذلكَ أُغشِيَ عليَّ من الخوف والرهبة، فلمّا أفقتُ أخذتُ في تجهيزه وتكفينه بالعباءة التي أوصاني بها، ومضيتُ أحضر حمّالين يحملوه معي إلى مسجدٍ يُصلَّى عليه به، فلمَّا دخلتُ العمارة من البصرة رأيتُ الخَلْقَ مقبلين أفواجاً نحو المقبرة، فسألتُ بعضَهُم مستغرباً هذه الحشود العظيمة المتوافدة نحو المقبرة: عَلامَ تجتمع الناسُ عند المقبرة؟

فقيل لي: لقد سُمِعَ منادٍ في أنحاء البصرة يقول: قد مَاتَ وليُّ اللّهِ السبتيّ، فقوموا للصلاة عليه قرب المقبرة. فخفق قلبي وقلتُ: صحيحٌ أنَّه ماتَ، ولكنَّه في الخرابة، وليس هنا. فذهبتُ إلى الخرابة فلم أجده حيث تركتُهُ وكفَّنْتُهُ، فأتيتُ المقبرةَ مسرِعاً فرأيتُه على حافةِ القبر، وهو مُغَسَّلٌ مكفَّنٌ بأكثر من كَفَنٍ والعباءة فوق الأكفانِ الخضراءَ جميعها، ورأيتُ أئمَّة البصرة مجتمعين يصلّون عليه ثمّ أنزلوه القبرَ، ورأى الجميع مندهشين كيف صار التراب ينهال وحده حتّى غطّى القبر تماماً.

وبعد هذا رجعتُ إلى منزلي وأخبرتُ أهل بيتي بما جرى، ثم أخذتُ زوّادة واتجهتُ إلى دار السلام قاصداً أمير المؤمنين ومعي الكتاب والمصحف والخاتم. فما أن وصلتُ حتّى رأيتُ أمير المؤمنين هارون الرشيد راكباً في جحفلِه، فرفعتُ صوتي

منادياً: يا أمير المؤمنين! أنا رجلٌ غريب، وقد أتيتُ من مكانٍ بعيد، ومعي رسالة من رجلٍ حبيبٍ، بذكرِه النفوسُ تطيبُ، وهي مبعوثة إليك.

فأوقفَ الرشيدُ العسكر، وقال للغلمان: عَلَيَّ بصاحب هذا الصوت فقد أزعجني وأحرق صميمَ فؤادي صوتُه، ولي في الغربة نصيبٌ. فأخذوني إليه، وأوقفوني بين يديه. فقال الرشيد. يا شيخُ من أين أتيتَ؟ فقد أزعج صوتك قلبي. فقلتُ: أنا رجل من البصرة، ومعي رسالة من غريب عن عهد قريب وعنه هذه الأبيات:

مَـا لِلغريـبِ مُجيْـرٌ فِـي صَـبَابَتِهِ ... إِنْ قَالَ أبْطَلَ وَإِنْ أَخْفَى الهَوَى هَلَكَا

يَخْلُـو بغربتـهِ في دارِ وَحْدتِـهِ ... حَتَّى إذَا مَضَّهُ الشوقُ الشديدُ بَكَا

فَفِـي النَّهَـارِ تَـرَاهُ هَائِمَـاً قَلِقَـاً ... وَفِـي اللَّيَـالِي تَـرَاهُ يَرْصُـدُ الفَلَكَـا

لَـوْ أَنَّـهُ مَلِـكٌ تَسْرِي الجُيوشُ لَـهُ ... مَـا كَـانَ إلاَّ غريبَـاً أينَمـا سَلَكَـا

فقال الرشيدُ: ما هي رسالتُكَ أيّها الشيخُ؟

فأخرجتُ له المصحف والكتاب والخاتم. فلمّا نظر الرشيدُ عنوانَ الكتابِ صَرَخَ صرخةً عظيمةً، وهَمَّ أن يقع عن سرجه، فبادر الغلمان إليه فألزموه بالوقوف وأمسكوه جيداً، فضجّ العسكرُ وعلا الصراخ والصياح والبكاء، وهَجَمَ بعضُ الغلمانِ عليَّ بالإهانة، فأشار إليهم بيده ألاّ يكلموني وأن يبتعدوا عنّي.

فلمّا استعاد نشاطه وقوّته فتح الكتابَ فإذا فيه:

W ((وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ{19})) C سورة ق

obeikan.com

بَلِّـغْ أَمَانَــةَ مَــنْ أَوْفَــى أَمَانَتَــهُ   إِلَـى الرَّشَـيْدِ فَـإِنَّ الأَجْـرَ فِـي ذَاكَـا

وَقَـلْ غَرِيْـبٌ لَـهُ شَـوْقٌ لِـرُؤْيَتِكُمْ   عَلَـى تَمَـادِي الهَـوى وَالبُعْـدِ لبَّاكَـا

مَـا صَـدَّهُ عَنْـكَ إِكْـرَاهٌ ولا مَلَـلٌ   فَــإِنَّ بُغْيَتَــهُ فِي لَــثْمِ يُمْنَاكــا

وإِنَّمَـا أَبْعَـدَتْنِي عَنْـكَ يَـا أَبَـتِ   نَفْـسٌ لَهَـا عِفَّـةٌ عَـنْ نَيْـلِ دُنْيَاكَـا

فَلَمَّا قرأَ الكتابَ والأبيات، قبَّلَ الكتابَ ووضعهُ على عينيهِ وقال: واحزناه....! وا أسفاه....! وا شوقاه إلى كَفٍّ كتبتْكَ، كيف تبلى في التراب؟، وضمَّ الكتابَ إلى صدره ثانيةً زائداً التلهُّفَ والحسراتِ، وقال: يا شيخُ سألتُكَ الله، هل شاهدتَهُ عند موتهِ؟ فقلتُ نعم. يا أمير المؤمنين. فقال: صِفْ لي إيَّاه. فقلتُ: شابٌ مليحُ الوجهِ، حَسَنُ المنظرِ، نحيلُ الجسمِ، يلبسُ الصوفَ ويصُوم الدهرَ، كثيرُ البكاء، دائمُ النوح يعمل في الطين كلَّ سبتٍ بدرهمٍ ودانقين، يأكل بالدانقين ويتصدّق بالدرهم، ولا يريد مع الله سواه، وإنّني قد توليّتُ أمرَهُ.... وأخبرتُ الرشيدَ بكلِّ ما كان وجرَى. فبكى هارون وقال: هنيئاً لعينٍ تمتَّعت بالنظرِ إلى محبوب قلبي. هل لكَ أن تسيرَ معي إلى عند أمِّهِ وتحدّثها بما رأيتَ وسمعتَ من حديثهِ، فما أظنُّها تصبرُ على فراق ابنها وغياب خبره؟ فمضيتُ معه إلى دار الخلافة، فإذا بالستِّ زبيدة تبكي وتنادي وتقول: يا ولدي! ويا حُشَاشة كبدي. وقالت لي: يا شيخُ أنتَ حضرتَ وفاته وعاينتَهُ عند موته؟ فقلتُ: نعم. وقصّيتُ عليها القصّة إلى آخرها. فعند ذلك صرخت صرخة عظيمة وقالت: واحسرتاه! وا ولداه....حملّتني حِملاً ثقيلاً، مالي إليه سبيل. ثم أنشدتْ:

قَلْبِـي تَقَطَّـعَ يَـوْمَ فِـرَاقِكُمْ قِطَعَــاً   وَالوَجْـدُ أَقْلَقَنِـي، قَـدْ زَادَنِـي جَزَعَـا

وَاحَسْـرَتَاهُ عَلَـى مَـنْ كَـانَ لِـي أَمَـلاً   وَاغُرْبَتَــاهُ غَـدَا ذُخْـرِي وَمَـا رَجَعَـا

obeikan.com

حُزْنَاهُ لِـي بَعْـدَهُ، كَيْـفَ المقـامُ بـلاَ ... رُؤْيَـاهُ؟ مُـذْ أُنْسُـهُ عَـنْ حيِّـهِ مُنِعَـا

أحْـرَقَ فُـؤادِي، وجسـمي شَـابَهُ سُـقْمٌ ... وَالطَّـرْفُ مِنْـهُ عَلَـى الخَـدَّيْنِ أَدْمُعَـا

كيْـفَ الغَرِيْـبُ، وَمَـا قَاسَـى بِغُرْبَتِـهِ ... كَيْفَ المَمَاتُ لَهُ، أمْ كيفَ بهِ صَنَعَا؟

كيْـفَ المُغَسِّـلُ لَـهُ، أمْ كَيْـفَ كفَّنَـهُ ... أمْ كَيْـفَ قَبرٌ ثَـوى فيـهِ وَقَـدْ رَتَعَـا؟

صَبْرٌ جَمِيْـلٌ عَلَـى حُكْـمِ الإلَـهِ وَمَـا ... رَجَـائِي إلاَّ بِصَـبْرِي كَيْمَـا أَنْتَفِعَـا

أَطْلُـبُ مِـنَ اللّهِ رَبِّ العَـرْشِ يُسْـكِنُهُ ... رَوْضَ الجِنَانِ بهَا يُخَصُّ غَدَا الوَرِعا

قَـدْ فَـارَقَ الأَهْـلَ وَالأَوْطَـانَ أَجْمَعَهَـا ... وَأَقبَـلَ مُجِـدّاً إِلَـى مَـوْلاَهُ مُنْقَطِعَـا

ثمّ أنّها صرخت صرخةً عظيمةً، وأغشِيَ عليها، فارتفعَ البكاءُ والعويلُ من الخدمِ والحَشَمِ، وبعد أن أفاقتْ من غشوتها نادتْ بصوتٍ رفيقٍ حزينٍ:

يا ولداه! يا عزيزاه! ثم أنشدَتْ:

قُـرَّةَ العَـيْنِ لَـمْ تَـدَعْ لِـي قَـرَاراً ... كُنْـتَ جَـارِي، فَصِـرْتَ لِلْقَبْـرِ جَـارَا

سَـاكِنَاً كُنْـتَ لِـيْ، وَأَمِيْنَـاً ... قَـدْ كَـوَتْ مِنْـكَ الفُـؤَادَ نَـارَا

يَـا حَبِيْـبَ القَلْـبِ أنْـتَ رَجَـائِي ... لَيْـتَ لِـي مِنْـكَ فِـي المَنَـامِ مَـزَارَا

ثمّ شهقتْ شهقةً ثالثة، وسقطتْ على الأرضِ، فحرّكوها فإذا هيَ ميّتةٌ، فضجَّت الناسُ عليها بالبكاء والعويل، وأخذوا في جهازها ودفنها.

ثمّ هممتُ بالمغادرة إلى البصرة، فقال لي الرشيدُ: أريدُكَ أن تأخذني إلى قبر ولدي، فسِرْتُ معه، وما أن انحدر إلى البصرة ووصلها حتّى زُيِّنتْ له، واصطفّتِ

النَّاسُ لاستقباله، فأمرَ برَفْعِ الزينة، وأتى قبر ولده، فأمرَ بإخراجه منه، وحمله إلى بغداد ودفنه بها، وعملَ فوقه قبّةً حسنةً. رحمةُ اللّه ورضوانه عليه.

ثمّ قال اسحق الشيرازي: وهذا يا شيخُ عبد اللّه ما جرى معي والسبتي. فقال القطّان: قد كنتُ أشعرُ أنّ ذلكَ الغلامَ وليٌّ صالحٌ، رحمةُ اللّه عليهِ، ثمّ قامَ وشكرَ اسحقَ وعادَ يخبرُ النَّاسَ قصة السبتي رحمه اللّهُ وقد كانت وفاة السبتي سنة أربع وثمانين ومئة للهجرة.

وَهَذا مَا انتهى إِلَيْنَا مِنْ قِصَّةِ أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ (رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ)، واللّهُ الموَفِّقُ، وإليْهِ المرجِعُ وَالمَصِيْرُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ ما يشَاءُ قدير.

obeikan.com

3 ـــ قِصَّةُ العَابِدَةِ شَعْوَانَةَ (رضي الله عنها)

هي شعوانة العابدة الزاهدة منذ طفولتها، كانت ابنة لأحد ملوك بلاد فارس العابدين الذين تركوا المُلْكَ والدنيا حُبّاً باللّه.

لا يُعرف تاريخ ولادتها، ولكنَّ المؤرّخين أجمعوا على أنَّ وفاتها كانت في العام (185هـ) أو (187 هـ). ذكرَها ابنُ كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) وقال أنّها أَمَةٌ سوداء، وهذا خبر مغلوط، وحتى أنَّ ابنَ كثير لم يروِ عنها أكثر من ذلك. وروى أبو نعيم السجستاني خبَرها مع سبعة العُبّاد (وهو خبر قريب للصحّة وجدتُه في أكثر من مصدرٍ).

وحسب ما جاء في المصدر فإنَّ العَابدة شعوانة (رضي اللّه عنها) لم تُعمِّر طويلاً وقضت حياتها بثياب الرجال تعيش حياتهم حتى كان ما كان من خبرها مع ابنة الملك الفاسدةِ، ومن ثمّ كشف الحقيقة.

وقد دُفنتِ العابدة شعوانة في البصرة، ولها قبرٌ يُزار للتبارك به.

قِصَّةُ العَابِدَةِ الزاهِدَةِ شَعْوَانَةَ

رَوَى أبو نعيم السجستاني الحافظُ المعروفُ خبَر العابدةِ الزاهدةِ شعوانةَ رضيَ اللّهُ عنها مع العُبّادِ الزهّادِ السبعةِ فقال:

كان في أرض الرافدين عُبَّادٌ سبعةٌ، قد فاقوا أهل زمانهم في العبادة والزهد، فاجتمعوا يوماً ليتَّفقوا حولَ بناء مكانٍ لهم يعبدون اللّه تعالى فيه، فاختاروا مكاناً غير بعيد عن المدينة، وقالوا: هذا مكانٌ حَسَنٌ قريبٌ من المدينة، فنحن لا غنى لنا عن ذلك.

فقال كبيرهم: بحقّ الواحد القهّار! إن أخذتُم في بناء هذه الدار، فإنّها دار غرور وزوال، لا تدوم ولا تبقى على حال.

فقالوا: لا غنى لنا عن موضع نسكن فيه.

فقال: إن كان ولا بدّ من البناء والسكن، فابنوا خيمةً من قصبٍ نسكنُ فيها ونتعبّد اللّه تعالى داخلها. فلمّا بنُوهَا، واستقرّوا فيها، قال بعضُهم: كيف ندبّر أمور معيشتنا وأحوالنا؟

فقال كبيرُهم: خذوا في صنع الحُصْرِ، أربعةٌ منّا يصنعون الحُصُر، وثلاثةٌ في العبادة منقطعون لخدمة الخالق تعالى وعبادته، فإذا فرغ الأربعةُ من عَمَلِ الحُصْرِ، يأخذونها للمدينةِ ويبيعونها، ويحضرونَ لَنَا طعاماً، وبعد أن ينتهوا، يتفرّغون للعبادة والتعبّد، ويقوم الثلاثة الباقون بصُنْعِ الحصر لليوم التالي، والأربعة منصرفون للعبادة.

ثم فعلوا ما اتّفقوا عليه، وأقاموا على ذلك مدّة من الزمن، حتّى قال بعضُهم ذات يومٍ: كيف لنا أن نلبس شيئاً لم يسبقنا إليه أحدٌ من العبّاد والزهّاد؟

فقال كبيرهم: واللّه ما أرى شيئاً من اللباس الخشنِ والبسيط إلاّ وقد لَبِسَهُ العُبَّاد، ولكنّي أجدُ أنّ لِبْسَ الحُصُرِ الخشنة لم يسبقنا إليه أحدٌ. فلبِسُوا الحصر فترة طويلة حتّى تقشّرت أعناقهم وجلودهم، وأداموا البكاء خوفاً من اللّه ليلاً ونهاراً، وتعبّدوا بعبادة لا يقدرُ عليها إلاّ الأنبياءُ والأولياءُ الصالحون، حتّى وصَلَ خبرهم إلى ملك إحدى الممالك البعيدةِ، وكانَ له ابنةٌ صغيرةٌ يتيمةُ الأمّ، فأقبلَ الملكُ، وكانَ عابداً صادقاً، على البكاء ليلاً ونهاراً، فلمّا كان في ذاتِ يوم أقبلتْ عليه ابنتهُ وقالت له: يا أبتِ إلى متى هذا البكاء الذي أنتَ فيه؟

فقال: اعلمي أنّي قد فكّرتُ في هؤلاء العبّاد السبعة الذين تركوا الدنيا ورفضوها بمتاعها الغرور، وذهبها ولآلئها، لأنّها ذات زوال ولا تدوم على حال، وإنّ هذا المُلْكَ الذي أنا فيه لا يدوم لي، وأنا أريدُ أن أتركَهُ وأسيرَ سيرهم وأنهجَ نهجَهم، وأبقى معهم حتى يقضي اللّه تعالى عليَّ وعليهم بما هو قاضٍ، وعسى الفرج يكون قريباً إن شاء اللّه.

فبكَت ابنتهُ وقالت: لمنْ تتركني وحيدةً في هذه الدنيا؟ وقد انصدع قلبي عليكَ وتقطّعَ كبدي حزناً، ولا أريدُ أن يكون إثمي عليك أكثر من الثواب الذي ترجوه

من ربّك. فبكى الأبُ لهذا الكلام وقال وماذا أفعلُ بكِ يا حبيبتي، وأنتِ تعلمين أنّه لا يجوز للنساء رِفْقَة الرجال والجلوس معهم؟

قالتْ: يا أبتِ! أنا صغيرةٌ، ولا أدري من أمور الرجال وحياتهم شيئاً، فاقطعْ لي ثيابَ الرجالِ، وأسيرُ معك إليهم حتّى يقضي الله علينا بما هو قاضٍ.

فوَافَق الأبُ كي لا يترك ابنتَهُ وحيدةً في الدنيا، وقطع لها ثياباً من شَعْرِ ماعز، وله مِثْلُ ذلك، وأخذ بيدها، وسار هَارِباً في الليل وترك مُلْكَهُ ومالَهُ قاصداً العُبَّادَ السبعة، حتّى وَصلَ إليهم فدخلَ عليهم الخيمةَ، فسلَّمَا عليهم فردّوا عليهما السلام ورحَّبوا بهما، وقد ظنّوا ابنتَهُ غلاماً ذكراً، حيث لم تبدو أماراتُ الأُنوثةِ عليها بَعْدُ، واستبشروا بها خيراً، وصاروا يصنعون الحصر جميعاً حتّى إذا كان وقت العشاء يذهب الغلام[1] إلى المدينة بما عملوا فيبيعها ويشتري بثمنها زيتاً وشعيراً، ويأتي إلى أصحابه. فظلّوا على تلك الحال من العمل والعبادة حتّى قضى الله على الملك بالمرض الشديد، فلمّا أشرف على الموت أقبلَ عليه أصحابهُ وقالوا له:

يا وليّ الله! أخبرنا بما تراه، فإنّه قد بلغنا أنّ الروح لا تخرج من الجسد مُفارِقةً حتّى يرى الإنسانُ مقعدَه من الجنّة إن كان مؤمناً والنارِ إن كان كافراً.

فقال: أبشروا يا أُخوتاه، فإنكم تقبلون على ربٍّ كريمٍ، وإنّي أوصيكم بما تركته بينكم وصيةً وأمانةً إلى يوم القيامة أسألكم حينها عن أمانتي. وأشار إلى الغلام (ابنته) ولم يحب أن يكذب آخر لحظاته، وكما أنّه لم يشأْ أن يكشف الحقيقة ويترك ابنته لوحدها في الدنيا.

فقالوا: جزاك الله خيراً، قد صدقتَ فيما قلْتَ، فابشر أنتَ، فإنّ ولدكَ بأمانٍ، وسوف نكون له كما كنا معك وأكثر إن شاء الله.

فقال: جزاكم الله خيراً، وعفَا عني وعنكم، وغفر لي ولكم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعونَ، وإليه المصيرُ.

---

(1) مِنَ الآن سوفَ نستخدمُ كلمةَ الغلامِ بدلاً من الفتاةِ (شعوانة)، كَوْنها سوف تعيشُ حياة الرجالِ، والجميع ينادونها بالغلامِ.

ثم توّفي بعد ذلك رحمةُ الله عليه، فأخذوا تجهيزه والصلاة عليه ثمّ دفنوه بالقرب من الخيمة، وكانوا لولده كما كانوا له في الحياة.

ثم قضى الله تعالى أن الغلام توجّه إلى المدينة ليبيع لهم الحُصُرَ كما جرت العادة، فوافق طريقه قصر الملك، وكانت ابنة هذا الملك فاسقة كافرة قاعدة مع مربّيتها على شرفة القصر، فنظرت إلى الغلام وهو داخل، فأعجبها حسنَهُ وجمالَهُ، وكان الغلام بهذه الفترة التي مرّت قد صار أكثر جمالاً رغم صعوبة العيش والقسوة في الطعام واللباس وكان يرتدي دائماً الثياب الفضفاضة الواسعة كي لا يظهر صدرُه فيعْرفَ الجميع أنّها فتاة.

قال: فبعد أن نظرت ابنة الملك الفاسقة من الشرفة، وأُعجبتْ بمنظر الغلام وحُسْنِهِ، قالت لمربّيتها: أما تنظرين إلى هذا الغلام ما أجمله! عساكِ أن تطلعي به إليَّ وتجمعي بيني وبينه ولك عندي ما تشائين.

فقالت المربِّية وكانت أكثر فُسْقَاً منها، وصاحبة حيلةٍ ودهاءٍ: حَسَنَاً إنّي سأفعل ما تريدين، فانتظري هنا. فنزلت إليه وقالت له بصوت يتصنَّع التديُّن والبكاء: حبيبي أَبْشِرْ بكلّ خيرٍ، فإنك بمنزلةٍ عظيمةٍ إذا جئت هنا، أسرِعْ فولدي مريض، وهو يعالج سكرات الموت، فاطلعْ إليه ولَقِّنْهُ شهادة التوحيد، تنلْ أجراً من ربِّكَ ومنّي. فصدّق الغلامُ القولَ، وأراد أن يصنَع خيراً، فدخلَ معها، فأغلقتِ المربِّيةُ الأبواب وأوصدتها بإحكام، وقالت لسيدتها: انزلي إليه فإنَّه هنا.

فنزلت وهي تتبختر في مشيتها، وحُلَلِها[1] وحُليِّها. فلمّا رأته قالت له: تمنَّى عليَّ ما شئت.

فقال: معاذ الله من ذلك، فإني أخاف الله إن أنا عصيتُه أزال النور الذي في وجهي، ويُذْهِبِ حظّي من الجنّة.

فقالت: لا بُدّ لي من ذلك، فإن لم تكن ترضى طوعاً، رضيتَ غصباً وكرهاً.

---

(1) **الحُللُ : مفردها الحُلّةُ وتعني الثوب الجيّد الجديد .**

ثمّ مدَّتْ يدها إلى الغلام، فلمّا رأى ذلك بكى وقال: لا إله إلاّ اللّه، إنّي لا أحبُّ من يعصي اللّه.

فألقى اللّه تعالى في قلب ابنةِ الملك الفاسقة الرعبَ والفزعَ، فقالت: يا دايةُ[1]! أخرجيه من هنا بسرعةٍ، فإنّه شيطان لا يُشبه الإنسَ، وليأخذْ حُصُرَهُ معه.

فأخرجتْهُ المربِّية، وأخذ الحُصُرَ معه، ومضى مسرعاً إلى السوق وباعَهَا، ثمّ اشترى بثمنها زيتاً وشعيراً، وسار فلمّا خرجَ من باب المدينة مروراً بقصر الملك، نظرتْ إليه ابنةُ الملكِ وقالت: واللّهِ لأعملنَّ على هلاكك، وهتْكِ سَتْرِكَ.

فقال لها: اللّه يحولُ بيني وبينكِ، وهو القادرُ العلاَّمُ بما في صدور الناس، وهو ربُّ العزَّةِ، الساقي البشر من الموت كأساً قادرٌ على ردّ كيدكِ عنّي.

ثمّ أنّ ابنة الملك الفاسقة اشتاقت إلى الرجال، فقالت لدايتها: إنّي قد اشتقتُ إلى الرجالِ، فعساكِ أن تساعديني في قضاء حاجتي وتحقيق مأربي؟

فأتتْها الدَّايةُ بفاسقٍ من فُسَّاق اليهود، فوطئها فحملَتْ منه. فقضى اللّه سبحانه أنّها حملت تسعة أشهر، وقدّر أنَّ أمَّها قد دخلَتْ عليها يوماً قَبْلَ اكتمالِ الأشهر التسعة وقعدتْ معها، وقد كانت متشاغلةً عن ابنتها بأمور الحفلاتِ والزياراتِ، مُوكِلَةً أمرها إلى المربِّية، فلاحظَتِ الأمُّ صُفْرةَ وجهها، وانتشارَ الكَلَفِ فيه، فوضعتْ يدَهَا على بطنِهَا فإذا بالجنين يركلُ، فصاحَتْ صِياحاً شديداً، وأُغشيَ عليها، فلمَّا سمعَتِ الجواري والخادماتُ الصُيَاحَ هَرَعْنَ إلى الملكةِ فوجَدْنَهَا مغشياً عليها فصرخْنَ وسِرْنَ إلى الملكِ وأخبرْنَهُ بخبر مولاتهنَّ، فسار الملك إليها، ثمّ دخل الغرفةَ، فلمَّا رآها على تلك الحالة وقد بدأتْ تستعيدُ وَعيَهَا سألها: ما شأنُكِ، وماذا حصل؟

قالت الأمُّ: سخط اللّهُ علينا.

فقال: ولِمَ ذلكَ؟

قالت: إنَّ الزِّنَا قد وَقَعَ في قصرِكَ.

---

(1) الدَّايَةُ: المرأةُ المُرْضِعُ غيرُ الأمِّ، أو الحَاضِنةُ والمربِّيةُ، والقَابِلَةُ المُوَلِّدةُ للأطفالِ.

قال: وكيف ذلك؟ قالت: إنَّ ابنَتَكَ كان من أمرها كذا وكذا...

فصاحَ الملكُ غاضباً وقد استشاط[1] غيظاً وغضباً، وقال لابنتِهِ التي خضَعتْ بين يديه: اصدقيني القولَ بالحقِّ وإلاَّ قطعتُكِ قطعاً.

فلمَّا سمِعَتْ ذلكَ منه قالت: يا أبتِ! واللّهِ مَالي أحدٌ إلاَّ الغلام الذي مع العُبَّادِ السبعةِ، أرغمني على ذلك.

فلمَّا سمع الملكُ ذلك الكلامَ اصفرَّ لونُه، وارتعدتْ فرائصُه، وعَمَدَ إلى سرير مُلكِهِ، واستوى عليه جالساً، وصاح بحَاجِبِه: عَلَيَّ بصَاحبِ الشرطة وعَسْكرِه.

فحضروا بين يديه، فقال لهم: عَلَيَّ بسبعة العُبَّاد أينما كانوا، ولا تنسوا إحضار الغلام الذي معهم، ولا تسوقوهم إلاَّ والحِبال بالأعناق، واللَّطْم في الوجوه، فإنَّهم قد صنعوا ذنباً عظيماً.

فمضى صاحبُ الشرطةِ إلى العُبَّاد، فدخل عليهم الخيمةَ، وجعلَ الحبالَ في أعناقهم، وَجَرَّهُمْ وضَرَبَهُم حتّى دخلَ بهم على الملك أذِلاَّءَ متعبين فوجدوا الملكَ على تلك الحالة من التكبُّر والتجبُّر، فلمَّا نظر إليهم صاح بهم وانتهرهم: أنتم في العلانية عُبَّاد، وفي السرِّ فُسَّاق.

فقالوا: ولِمَ سَمَّيْتَنَا فُسَّاقاً وما فينا من يعصي اللّهَ، وما علمنا أنَّ فينا منْ أشركَ باللّهِ؟ فأخبرنا بأيِّ جريرةٍ استوجبنا منك هذه العقوبةَ والمذلَّةَ والإهانةَ؟

فقال: إنّما فعلتُ بكم هذا لأَجْلِ الغلام الذي معكم، فإنَّه ارتكب مع ابنتي ما لا يُرضي اللّهَ ولا يُرضِي مَنْ عرفَهُ وعَبَدَهُ.

فقالوا: يا سبحان اللّه! تؤاخذنا بذنب غيرنا، وإنَّ الغلام الذي معنا لمَ نرَ منه إلاَّ الخير، وإذا غاب عَنَّا فلا علمَ لَنَا بِهِ، فَرَاقِبِ اللّهَ في أمرنا، واحذر من العقوبة والأخذ بالنواصي.

---

(1) اِسْتَشَاطَ: ثَارَ وانفعَلَ غضباً.

فبكى الملك بكاءً شديداً وقال لهم: اغفروا لي ذنبي، واتركوا لي ما ارتكبتُه بحقِّكُم، فما يضرُّكم إذا غفر لي ربِّي، وما ينفعكُم إذا عذّبني؟

فقالوا: مَنْ أرادَ أن يغفرَ اللّهُ له فَلْيَعْفُ عن ظلمِ الناس، ولكن أتحبُّ أيُّها الملكُ أن تعفوَ عن الغلام؟

فقال: يا قومُ! قد وَقَعَ في نفسي أن أعذِّبَ هذا الغلامَ عذاباً شديداً أو أن أنفيَهُ مِنْ أرضي.

فقالوا: أيُّها الملكُ! بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضٍ، فَأَخْرِجْهُ من أرضِكَ فهذا أهونُ عليه فهو رقيق الجسم لا يتحمل الضربَ الشديدَ. فوافقَ الملكُ، ثمّ قال لحاجبهِ: خُذْ هذا الغلام وانطلِقْ به إلى آخرِ أعمالي واتركْهُ حيّاً في أثوابه.

فسارَ بهِ الحَاجِبُ حتّى انتهى به إلى فلاةٍ من الأرض، فترَكَهُ فيها، وسار عنه، وبقيت الفتاةُ (شعوانة) وحيدةً مُسلِّمةً أمرها للّه. ثمّ قضى اللّه تعالى أنَّ ابنةَ الملكِ وضعت المولودَ، فأخذتْهُ زوجة الملك لزوجها وقالت: هذا وَلَدُ زِنَا قد وضَعَتْهُ ابنتُكَ فالتَفَتَ الملكُ إلى حاجبِهِ وقال له، أنتَ تدري مكان الغلام، فخُذْ هذا المولود وانطلق به إليه فهو أولى به. فأخذه، وسار به إلى الغلام وقال له يقول لك الملكُ خُذْ ولدكَ الذي جاءت به ابنتهُ منكَ.

فقال الغلام: حسبي اللّه ونِعْمَ الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم، ثمَّ مَدَّ يده إلى المولود وأخذه احتساباً لوجه اللّه تعالى، ثم وضَعَهُ عن يمينه وجعل يصلِّي ويبكي ويقول: يا إلهي وإله إبراهيم واسحق ويعقوب وعيسى ومحمد، أسألك أن تكفل هذا المولود، وأنت تعلم أن ليس لي فيه حيلة، وأنتَ ترزقه كيفما تشاء.

فعند ذلك أولى اللّه عزّ وجلّ إلى جبريل عليه السلام أن يمضي إلى جبل من جبال الشام، ويأمرَ غزالةً هناك أن تأتي إلى العابدة (شعوانة)، وتكفل الغلام المولود الذي معها، فهي قد سألتْهُ وحقيق عليه أن يجيبها، لأنَّها لم تَكُ قد شكَّتْ به يوماً، وما شكَتْ أمرها إلى غيره وقال: وعزّتي وجلالي لو أنَّها سألتني أن أُزيلَ الجبال عن أمكنتها لفعلتُ ذلك إكراماً لها.

فأتى جبريلُ إلى الجبل ونادى الغزالة فقال لها: يأمركِ اللّهُ ربّ العزّة أن تسيري إلى العابدة التي بموضع كذا وكذا، وتكفلي المولود الذي معها.

فسارتِ الغزالة إلى العابدة، واقتربت من الطفل المولود، وأمكَنَتْهُ من ثديها، حتّى شرب وارتوى، ثمّ جعلت تلحسه بلسانها كما تلحسُ ولدها، وبقيت على هذه العادَةِ فترة من الزمن، ثم إنّ العابدة رفعت رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي أسألكَ أن تقبض هذا المولود إليك فإنّه قد شغلني عن عبادتك وطاعتك، فإنّي أريد أن أعبدكَ ولا أشتغل بشيءٍ عن عبادتك.

فعند ذلك أوحى اللّه سبحانه وتعالى إلى عزرائيل عليه السلام أن يقبض روح المولود الذي مع العابدة، ففعلَ ما أمره اللّه به، ثمّ قامتِ العابدة شعوانة بلَفِّ المولود بثوب قديم ثمّ دفنته، وتفرّغت للعبادة والصلاة ليلاً ونهاراً، لا يفتر لسانها عن ذكر اللّه وتسبيحه وتقديسه، حتى أنَّ الطيورَ كَانَتْ تقفُ على رأسِها فتبقى جاثمةً في مكانها لا تتحركُ، فلا يُعرفُ إن كانت حيّةً أو مَيِّتةً. فأقامت على هذه الحال مدّةً طويلةً يمرُّ بهَا النَّاسُ ويجلسونَ قربَها للتبارك بها ويمضون في سبيلهم، فانتشر خبر الغلام (العابدة) في جميع الآفاق. فقال بعضهم: أما تنظرون إلى هذا الغلام كيف استجاب اللّهُ له وكَفَلَ المولود أوّل الأمر، ثم قبضَ روح الطفل في المرَّةِ الثانية. وعندما سمع العُبَّاد السبعة خبر الغلام الذي كان معهم قالوا: مَالَنَا إلاَّ السير إلى الملك، علَّهُ يردُّ علينا صاحبنا. ثمّ مضوا إلى الملك، فدخلوا وسلّموا عليه، فردَّ عليهم وقال: مرحباً بكم! ما الذي تريدون مِنِّي؟

فقالوا: أيُّها الملك إنَّا نريد هذا الغلام الذي نفيتَهُ، فإنَّه مُجَابُ الدعوة، صادقٌ في عبادتهِ، زاهدٌ في دنياه، ويبدوا أنَّنا قد ظلمناه، فنحنُ نسألك أن تردَّهُ إلينا.

فقالَ الملكُ: شأنكم وإيَّاه، اذهبوا وأعيدوه إليكم.

فقالوا: لا طاقة لنا بردِّهِ، ولا نعلمُ مكانَهُ.

فقال الملكُ للحاجب: سِرْ إلى الغلام ورُدَّهُ إلى أصحابه.

فمضى الحاجبُ حتى انتهى إليه، فوجده في فلاةٍ من الأرض فقال له: أيُّها العابدُ إنَّ الملكَ قد أرسلني إليك، وأمرني أن أردّكَ إلى أصحابكَ.

oboeikan.com

فقالَ الغلامُ (العابدة): السمعُ والطاعةُ للّهِ، ثمّ للملك، وسار معه حتى انتهى إلى الملك، فلمّا نظر الملك إليه قال له: أتحبُّ المقام عندي، أم تمضي إلى أصحابك؟ فقال: لا حاجة لي في المقام عندك، وإنَّما أريدُ أصحابي.

فقال له الملك: دونكَ وإيّاهم فاذهب إليهم، وأنتَ آمِنٌ مِنَ الجميعِ.

فمضى الغلام إليهم فاستقبلوه بالترحيب والتهليل، وفرحوا به، فجلسَ معهم يعبد اللّه تعالى. واتفق بعد مدّة ليست بالقصيرة أنّه مرض مرضةً عظيمةً، فقعد أصحابه حولَهُ وقالوا له: بماذا توصينا يا وليَّ اللّه؟ فقال: اتَّقوا اللّهَ كأنَّكم تَرَوْنَهُ، فإنَّه يراكم، وإيّاكم والمعاصي، فإنَّها تُخْلِقُ الوجوهَ[1]. فقالوا: جزاك اللّه عنا خيراً، فأوصِنَا عن نفسِكَ. فقال: أوصيكم أن تدفنونني في مِسْحِي[2] هذا الذي عليَّ.

فقالوا: لا نفعلُ ذلك، فإنَّه لا بد من الغَسْلِ والتكفينِ، ولاسيِّما أنَّكَ عابدٌ، ولا يجوز لَنَا أن نفرِّطَ في غسلِكَ.

فقال: ما دمتُم مصرِّين على ذلك، فانتظروا أن تخرجَ الروحُ منِّي، واطلبوا من كبيركم أن يأخُذَ السكِّينَ ويضعَهَا على صدري ونحري، وافعلوا بعد ذلك ما شئتم.

فقالوا: نفعل ذلك إن شاءَ اللّهُ.

وقَضَى اللّه تعالى باسترداد أمانته من العابدة الزاهدة شعوانة رحمةُ اللّه عليها، التي ما تزال في نظر الجميع غلاماً عابداً، زاهداً، فبكوا على الغلام، وداروا حوله يقرأون عليه آيات من الذِّكْر الحكيم، ثمّ حمدوا اللّه تعالى، وأثنوا عليه، ثمّ قالوا لكبيرهم: قمْ إلى صَاحبنا المرحوم وافعل ما أوصانا به.

---

(1) تُخْلِقُ الوجوهَ: تُبْلِيْهَا وتلحِقُ بِهَا الهلاكَ والفنَاءَ.

(2) المِسْحُ: ثوبٌ من الشَّعْرِ أو الوَبَرِ يَلبَسَهُ الرَّاهِبُ.

فقـامَ وأمسـكَ بالسـكِّين ووضـعها علـى صـدر الغـلام (العابـدة) فَبَـانَ لـه صَـدْرُ امـرأةٍ، فرمـى السـكين مـن يـده، وجعـل يـركضُ ويتعثَّـر، فلمَّـا نظـروا إليـه تبعـوه وسألوه عمّا به، فقال: يا قومُ! إنَّ الغلامَ المتوفَّى هو امرأة.

فقالوا مستغربين مندهشين: ماذا تقول؟ ارجع وانظر جيداً علَّكَ تكون مخطئاً.

فقـال: أمـا تعلمـون أنَّ أوَّلَ نظـرةٍ لا يعاقِـبُ اللّٰه عليهـا، وإِنَّ إعـادةَ النظـر معصية بعينها.

فقالوا: وكيف نتأكَّدُ ممَّا قُلْتَ؟ ويجبُ أن نعرفَ ماذا نصنعُ؟

فقال لهم: انهضوا وادخلوا المدينـة، وأَعْلِمُـوا النُسـوةَ الصـالحات منهن أن يـأتيْنَ وينظرْنَ إليها.

فمضـى بعـضُ العُبَّـاد إلى المدينـة، وأَخْبَـرَوا بعـضَ النسـوةِ الصـالحاتِ بالقصَّـةِ، وسرعان ما انتشـرَ الخبرُ في المدينـة كلِّهـا، فجاءتِ النسـوةُ وكـثيرٌ مـن أهـل المدينـة رجالاً وأطفالاً، فدخلت بعضُ النسوةِ الخيمةَ، ولمَّا نظرْنَ وتأكَّدْنَ أنَّها امـرأة، رفعْـنَ الصوتَ بالصُياحِ والبكـاء، فضجَّتِ النـاس لهذه القصَّـةِ الغريبـة، وكيـفَ يكـونُ العابدُ الزاهدُ الذي اتُّهم ونُفي بسبب ابنة الملكِ، كيف يكون امرأةً.

ولمَّـا سمع الملكُ الخبرَ المنتشِـرَ بسـرعةٍ، أقبـلَ هـو وزوجتـه، فتقـدَّمتْ امـرأةٌ منـه وقالت: هي امرأة، وربِّ الكعبةِ.

فقال لامرأتهِ: ادخلي وانظري. فدخَلَتْ ونظرتْ فإذا هي امرأة فخرجت إلى الملك مسرعةً تبكي بكاءً شديداً، حزناً وألماً على الظلمِ الـذي ألحقوه بهـا، وقالـت: هـي امرأةٌ... امرأةٌ وربِّ الكعبةِ.

فلمّا سمع الملك قولَها، نزل عن فرسه، وجعل يحثو الترابَ على رأسه، ويبكـي بشـدّةٍ، ثـمّ قـال للعبّـاد: اتركـوني أكفِّنُهـا بنفسـي، فـإنّي جَنَيْـتُ علـى هـذه الوَلِيَّـةِ الصالحةِ جنايةً عظيمةً، وأخاف أن يعذّبني اللّٰهُ بذلك.

فقالوا: شأنُكَ وما تريد.

obeikan.com

فطلب الملكُ من الحاجب أن يحضرَ أكفاناً، وقال لقائد الشرطة: آتوني بابنتي موثقة بالحديد، واربطوها حتّى نفرغ من دَفْن العابدة الزاهدة. فأُتي بأكفانٍ، ولمّا فرغَتِ النسوةُ من غَسْل جثمان العابدة، وقُمْنَ يجلبنَ الأكفانَ من الملك، ولمّا عُدْنَ وَجَدْنَ العابدة قد كُفِّنَتْ بأكفانٍ تكاد تغشي الأبصار من شدّة لمعانها وضوئها، وروائحها رائحة المسكِ. فلمَّا رأَيْنَ ذلك الأمر العجيب، خرجْنَ إلى الملك وأعلَمْنَهُ بذلك، وقلنَ له: اللّهُ قد رَدَّ أكفانَكَ عليكَ أيّها المَلكُ، وقد أرسل لها أكفاناً من الجنَّة كفنَّتْها الملائكةُ بها.

فبكى الملكُ بكاءً شديداً وقال: أريدُ أن أضعَ أكفاني فوق تلك الأكفان.

فقالوا: لا تفعل أيها الملكُ!

فقال: حسناً. لا أعترض على أمر اللّه ومشيئتهِ. احفروا القبرَ.

وعندما بدأَ الرجالُ بالحَفْرِ وجدوا الترابَ أَلْيَنَ من الزبدةِ، ورائحتَهُ أطيب من رائحة المسكِ، فلمَّا أتمُّوا الحَفْرَ تقدَّمَ الناسُ واصطفُّوا للصلاة على جنازة العابدة، ووقف الإمام أمامهم، فلمَّا هَمَّ بالتكبير جعَلَ يتأخَّر ويتراجع للخلف. فاستغربَ الملكُ والناسُ منه ذلك وقالوا: ما بالُكَ تتراجع للخلف؟ فقال: أمَا تَرَوْنَ ما أرى؟

فقالوا: لا. وماذا ترى؟ قال: أرى فارساً على جوادٍ أشقر، بيده حَرْبَاتٌ تخرجُ منها النارُ. فقال العُبَّادُ: هذا جبريلُ عليه السلامُ. ثمّ انهمر البرق والرعد عن يمين الناس وشمالهم، فجعلوا يهربون، فلمّا انتهى البرقُ والرعدُ عادوا ودنوا من القبر ليلحدوها، فرأوا الترابَ يسيلُ عن يمين القبر وعن شماله، فعلموا أنّ الملائكة قد تولَّوا دَفْنَها، فأعلمُوا الملك بذلك، فقال لبعض وزرائه عَلَيَّ بابنتي. فجيءَ بها، فأَمَرَ بضرب عنقها بسيفهِ، وقال لوزيره: خُذْ رأسها واجعله في طُسْتٍ وطُفْ به في المدينة، ونَادِ بأعلى الصوت: « هذا جزاء من صَنَعَ الفاحشة وادّعى بها على أولياء اللّه تعالى »

ففعل الوزير ما أمره الملكُ، ثمّ أمرَ الملكُ ببناء ضريح فوق قبر العابدة الزاهدة شعوانة رضي اللّه عنها، فبُنيَ على أحسن ما يكون، وصارت الناس تزوره للتبارك به وظلَّ العُبَّاد بجانب الضريح في خيمتهم يصنعون الحُصُرَ ويبيعونها، حتّى قضى اللّه أمره فيهم. رحمةُ اللّه عليها وعليهم.

وَهَذا مَا وَصلَ إِلَيْنَا مِنْ قِصَّةُ العَابِدَةِ الزَّاهِدَةِ شَّعْوَانَةَ (رَضِيَ اللّهُ عَنْهُا)، وَصَلَّى اللّهُ عَلَى خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ، والحَمْدُ للّهِ رَبِّ العِزَّةِ والبَهَاء، وإِلَهِ الأَرْضِ وَالسَمَاءِ.

obeikan.com

4 ــ قِصَّةُ الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ (τ)

هو أبو عليّ الفُضَيْلُ بْنُ عَيَّاضٍ التميمي، أحد العُبَّاد، وعَلَمٌ من الزهَّاد، وواحد من العلماء والأولياء، وُلِدَ بخُراسَان عام /100 هـ، 723 م/ وكانت ولادته في كورة دَيْنَوَر، وقَدِمَ الكوفة وهو كبير السن، ثمّ انتقل إلى مكَّة المكرّمة فتعبّدَ فيها لفترة طويلة، ثمّ غادرها إلى بغداد وعاش فيها فترة من الزمن ذَاعَ فيها صيتهُ بين الناس، وشاعتْ أقوالُه ومواعظُه، حيث توافَدَ الكثيرون يطلبون منه النصح والموعظة، ومنهم الخليفة هارون الرشيد.

كان الفُضَيْلُ حَسَن التلاوة، كثير الصلاة والتهجُّد والصيام، عاد لمكّة، ومات فيها سنة 188 هـ. وقَبْلَ توبته كان شاطِراً[1] يقطع الطريق، وكان يتعشّق جارية جميلة، وبينما هو يتسوّر جداراً ليصلَ إليها سمع قارئاً يقرأ:

W

((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)) C سورة الحديد

فقال: بَلَى يا فُضَيلُ. وأقلعَ عمّا كان عليه ورجعَ إلى خرابةٍ يبيتُ فيها فسمع صوتَ مسافرين يقولون: خذوا حذركم، إنَّ فضيلاً أمامكم يقطع الطريق. فأعطاهم الأمان واستمرّ على توبته حتى صار مثلاً في السيادة والعبادة. وكان يقول: لو أنّ الدنيا كلّها حلال، ولا أحاسب بها لكنتُ أتقذّرُ منها كما يتقذّرُ أحدُكم من الجيفةِ إذا مرَّ بها.

---

(1) الشاطِرُ: الخبيثُ الفاجِرُ، والعَامَّةُ تستعملها بمعنى الذكيّ الحَذِقُ.

وكان يقولُ: العملُ لأجلِ الناس شَرْكٌ، وتركُ العمل لأجلِ الناسِ رياءٌ، والإخلاصُ أن يعافيك الله منهما.

وقال له الرشيد يوماً: ما أفهمكَ!

فقال له: أنتَ أَزْهَدُ مني، لأنني زهدتُ في الدنيا التي هي أقلّ من جناح بعوضة، وأنتَ زهدتَ في الآخرة الباقية، فأنا زاهد في الفاني، وأنت أزهد ممّن فيه، وقد زهدتَ أنت في الباقي، ومَنْ زهدَ في درّةٍ أزهدُ ممَّن زُهْدُهُ في بَعْرةٍ.

وكان يقول عندما يطلبُ أحدُ الناس منه أن يدعي لهم: لو أنَّ لي دعوةً مستجابةً لجعلتها للإمام لأنَّ به صلاحَ الرعيَّةِ، فإذا صَلُحَ أَمِنَتِ العبادُ والبلادُ.

وقال ذات مرّة: إنّي لأعصي الله فأعرفُ ذلك في خُلْقِ حمَاري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي. وقد عاش الفُضَيل عُمْراً مديداً، منقطِعاً للعبادة والزهد في الدنيا، وتوفي سنة/188 هـ، 811 م/ رحمةُ الله عليه.

قِصَّةُ الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ مَعَ هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ

رَوَى الفَضْلُ بن الربيع وزير الخليفة هارون الرشيد خبَر الرشيد مع الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ العابد الزاهد فقال:

حَجَّ هارون الرشيد من بغداد إلى مكّة المكرَّمة وكنتُ وزيره عليها، فأتاني فلمّا علمتُ بقدومه خرجتُ إليه مسرعاً وقلتُ له: يا أميرَ المؤمنين لو أنَّكَ أرسلتَ إليَّ لأتيتُكَ؟

فقال: ويحَكَ! قَدْ حَلَّ[1] في نفسي شيء، فانظرْ لي رجلاً عابداً زاهداً.

فقلتُ له: هاهنا سُفيان بن عُيَيْنَة، العالمُ واسعُ العلم، كبيرُ القَدْرِ حَفِظَ القرآن والأحاديثَ الشريفة، لا يضاهيه في الحجاز عابدٌ ولا زاهدٌ ولا حافظٌ إلاّ أنسُ بن مالك.

فقال الرشيدُ لي متلهّفاً: امضِ بنا إليه.

---

(1) حلَّ في نَفْسِهِ : رَاوَدَتْهُ الوَسَاوِسُ حَوْلَ بَعْضَ الأمُورِ .

فأتيناه دارَهُ، فقرعتُ البابَ، فقال: مَنْ بالباب؟

فقلتُ: أجبْ أميرَ المؤمنين يا سُفيانُ!

فقال سفيان وهو يخرج مسرعاً: يا أمير المؤمنين! لو أردتَ أرسلتَ إليَّ فكنتُ آتيتُكَ؟

فقال الرشيد: خُذْ لِمَا جئناكَ له[1] رحمك اللّهُ.

فبقي سفيانُ والرشيد يتحادثان ساعة من الزمن، فلم يَشْعُرِ الرشيدُ بشيءٍ من الارتياح، فقال لسفيان: هَلْ عليكَ دَيْنٌ؟

فقال: أجل عليَّ بعض الديونِ. فقال الرشيدُ: يا فضلُ! اِقْضِ دَيْنَهُ.

فلما خرجنا قال لي الرشيد: ماأغنى صاحبكم عني شيئاً، فانظر لي رجلاً آخر أسألُه فينفعني. فقلْتُ: ها هُنَا عبد الرزَّاق بن هَمام، من كبارِ حُفَّاظ الحديث الثِقاتِ. فقال: امضِ بنا إليه، فإنّي في شوق لسمَاعِ كلامٍ يفرِّجُ همومي، ويُذهِبُ كَرْبي.

فأتيناه، فقرعتُ البابَ فقال عبد الرزّاق: مَنْ هذا؟ قلتُ: أَجِبْ أمير المؤمنين. فخرجَ مسرِعاً، فقال: يا أميرَ المؤمنين! لو أرسلتَ إليَّ لأتيتُكَ. فقال الرشيد: خُذْ لِمَا جئناكَ له رحمك اللّهُ.

فحادثه ساعةً، ثم قال له: أعليكَ دين؟ فقال: نعم. فقال: يا فضلُ! اِقْضِ دَيْنَهُ.

فلمَّا خرجنا قال: ما أغنى صاحبُك عَنِّي شيئاً. فقال: فانظُر لي آخر يا فضلُ فإنَّ ما بي يثقلني ويتعبُ قلبي.

قلتُ: ها هنا الفُضَيْلُ بْنُ عَيَّاض.

قال: امضِ بنا إليه. فأتيناه فإذا هو يتلو آيةً من القرآن الكريم يردِّدُها، فقال الرشيدُ: اقرعِ الباب يا فضلُ! ففعلتُ، فقال: مَنْ هذا؟ قلتُ: أَجِبْ أميرَ المؤمنين. فقال: مالي ولأمير المؤمنين! فقلتُ: سبحان اللّه أما عليكَ طاعته؟! فنزل وفتح الباب ثم ارتقى الغرفة، فأطفأ ما كان معه من سراج، ثمّ التجأَ إلى زاويةٍ من الزوايا في

---

(1) خُذْ لِمَا جئناكَ له: تعني كلِّمْنَا بِمَا جِئنا نسألكَ عنه فينفعنا.

opeikan.com

البيت، فدخلنا وأصبحنا نبحثُ عنه بأيدينا في العتمة، فسبقَتْ كَفُّ هارون قبلي إليه، فقال الفضيلُ: يا لها من كَفٍّ، ما أَلينَها! إن نَجَتْ غداً من عذاب اللّه عزّ وجلَّ. فقلتُ في نفسي: واللّهِ سوف يكلِّمُهُ الفُضَيلُ اليومَ بكلامٍ من قلبٍ نقي لم ينطقْهُ أحدٌ قبله لهارون.

فقال هارون: خُذْ لما جئناكَ له رحمك اللّهُ!

فقال له: إنّ عمر بن عبد العزيز لمّا وليَ الخلافة دَعَا سالمَ بن عبد اللّهِ ومحمدَ بن كعب القُرَظِي، ورجاءَ بن حيْوَة، فقال لهم: إنّي قد ابتُليتُ بهذا البلاد فأَشِيْرُوا عَلَيَّ. فعُمَرُ بن عبد العزيز عَدَّ الخلافةَ بلاء، وعَدَدْتَها أنتَ وأصحابُكَ نعمةً. وقد قال سالم بن عبد اللّه لعُمَر: إن أردتَ النجاة من العذابِ فصُم الدنيا[1]، وليكن إفطارُكَ منها الموتُ.

وقال له محمد بن كعب: إن أردتَ النجاة من عذاب اللّهِ فليكنْ كبيرُ المؤمنين عندَكَ أباً، وأوسطُهم أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فَوقِّر أباكَ وأكرِمْ أخاكَ، وتحنَّن على ولدِكَ.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردتَ النجاة من عذاب اللّهِ عزَّ وجلَّ يا عُمر، فأحبَّ للمسلمين ما تحبَّ لنفسكَ، واكرَهْ لهم ما تكره لنفسِكَ، ثمّ مُتْ إذا شئتَ.

وإني أقولُ لكَ يا هارون: إنّي أخافُ عليكَ أشدّ الخوف يومَ تَزِلُّ[2] الأقدامُ، فهل معك - رحمك اللّه - مثل هؤلاء، أو مَنْ يشيرُ عليك بهذا؟ فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غُشِيَ عليه. فقلتُ لفضيل: أرفقْ بأمير المؤمنين يا فضيلُ رحمك اللّه.

ولمَّا صَحَا الرشيدُ قال الفضيلُ: يا أمير المؤمنين! بلغني أنّ عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكِيَ إليه، فكتبَ إليه عمر: يا أخي! أُذكِّرُكَ طولَ سَهَرِ أهل النار مع خلود الأبدِ، وإيَّاكَ أن يُنْصَرَفَ بكَ من عند اللّه فيكون آخر العهد بك وانقطاع

---

(1) صُم الدُّنْيَا : قصَدَ الزهدَ في الدنيا.

(2) يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ : أرادَ بهِ يومَ القيَامةِ .

الرجاء منكَ. فلمَّا قرأ العاملُ الكتابَ، طوى البلادَ حتّى قَدِمَ على عمرَ فقال له: ما أقدَمكَ إلينا؟

فقال العاملُ: خَلَعْتَ قلبي بكتابكَ، لا أعودُ إلى ولايةٍ حتّى ألقى الله عزَّ وجلَّ. فبكى هارون بشدةٍ ثم قال: زِدْني رحمك اللهُ.

فقال: يا حَسَنَ الوجهِ! أنتَ الذي يسألُكَ الله عزَّ وجلَّ عن هذه الخَلْقِ يوم القيامة، فإن أردتَ أن تَقِي وجهك من النار، فإيَّاكَ أن تصبحَ وتمسيَ وفي قلبكَ غشٌّ على أحد من رعيتكَ، فإنَّ النبيَّ قال: مَنْ أصبحَ لهم غَاشّاً لم يَرِحْ رائحة الجنّة[1].

فبكى هارون وقال له أعليكَ دينٌ؟

فقال: دَيْني لربِّي لم يحاسبني عليه بعدُ، والوَيْلُ لي إن سألني، والويلُ لي إن لم أُلهمْ حُجَّتي.

فقال هارون: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها على عيالكَ، وتَقَوَّمْ بها على عبادة ربِّكَ. فقال: سبحان اللّهِ! أنا أَدُلُّكَ على طريقِ النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟! سَلَّمَكَ اللّهُ.

ثمّ صَمَتَ فلم يكلِّمْنَا: فخرجنا من عنده، فلمّا صرنا على الباب قال هارون: يا فضلُ إذا دللتني على رجلٍ فدُلَّني على مثل هذا، هذا سَيِّد المسلمين.

ثمّ دخلَتْ زوجة الفضيل عليه فقالت له: يا رجلُ أما ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلماذا لا تقبلْ هذا المال فتفرِّجْنَا به؟ فقال لها: مَثَلِي وَمَثَلُكم كَمَثَلِ قومٍ كان لهم بعيرٌ يأكلون من كَسْبِهِ، فَلَمَّا كَبِر نحروْهُ فأكلوا لحمه.

فلمَّا سمع هارون هذا الكلام قال لي: ندخلُ عسى أن يقبلَ المالَ. فلمّا عَلِمَ الفضيل خرج فجلسَ في السطحِ على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلّمه فلا يُجيبه. فبينما نحن كذلك إذ خرجتْ جاريةٌ سوداءُ فقالت:

---

(1) لم يَرِحْ رائحة الجنّة: أي لم يَشُمّ ريحها ويحظ بنعيمها.

يا هذا قد آذيتَ الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله.فانصرفنا، ومازالت هذه القصّة في نفس هارون لا ينساها أبداً. رحمةُ اللّه على ذاك العابد الذي كره الدنيا فأجبّته الآخرة.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِالعَابِدِ الزَّاهِدِ الفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضَ (رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ).

والحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ.

obeikan.com

5 ـ قِصَّةُ سَرِيٍّ السَّقْطِيِّ (τ)(❖)

هو السَّريُّ بن المُغَلَّسِ السَّقْطِيِّ البغدادي، أحد كبار مشايخ الصوفية وكان تلميذاً للعابد المتصوّف معروف الكرخي. وصَاحَبَ كثيراً من العُبَّادِ أمثال: هشيم، وأبي بكرٍ بن عيَّاش، وأبي الحسن النوري، ومحمد بن الفضل بن جابر السقطي وكان ابن أخته العابدُ المتصوّفُ الجُنَيْدَ يرافقه ويروي عنه أخباراً وأقوالاً.

وكان لسريّ دكّان يتجرُ فيها، فمرَّت به جاريةٌ ذاتَ يوم قد انكسرَ إناء كانت تحملهُ لتشتري فيه زيتاً لسادتها، فجعلت تبكي، فأعطاها سريُّ شيئاً من المال لتشتري بدلاً منه، فنظر إليه معروف الكرخي معلِّمُه وقد رأى مَا صَنَعَ، فقال له: بَغَّضَ اللّه إليك الدنيا، فوجدَ الزهدُ طريقاً إلى قلبه من ذلك اليوم.

كان مولده في سنة /151 هـ، 778 م / حيث ظهر حبُّ الخير عنده ومساعدة الآخرين ومَقْتِهِ للدنيا منذ صغره، لذلك وضعه والده عند العابد معروف الكرخي يتعلّم منه أصول الدين والحكمة.

وبقي يحاولُ جاهداً الابتعاد عن الدنيا ومفاتنها ولذائذها، وكان يقول: أشتهي أن آكلَ أكلةً ليس للّهِ عليَّ فيها تَبِعَةٌ[1]، ولا لأحدٍ عليَّ مِنَّةٌ أو فَضْلٌ فما أجدُ إلى ذلك سبيلاً.

وقال سَرِيُّ أيضاً: احترقَ سوقُنا ذات مرَّةٍ، فقصدتُ المكانَ الذي فيه دُكَّاني فتلقَّاني رجلٌ وقال لي: أَبْشِرْ فإنَّ دكَّانكَ قد سلمَتْ من الحريق، فقلتُ: الحمدُ للّهِ. ثمّ ندمتُ أنّي ذكرتُ ذلك التحميد على سلامة دنياي ولم أواسِ الناسَ فيما هم فيه، لذلك أنا أستغفر اللّه منذ ثلاثين سنة على تلك الخطيئة عسى أن يغفرَ لي ربِّي.

(❖) اسمه سري، أو سري الدين

(1) التّبِعَةُ: الإِثْمُ والذّنْبُ.

Obeikan.com

وروى الخطيبُ البغداي عن السرّي فقال: كان سريّ يصلّي ورْدَهُ[1] ذات ليلةٍ، وتَعِبَ من طولِ الجلوس والقعود، فمَدَّ رجله في المحراب، فَسمِعَ هاتفاً منادياً: يا سريُّ هكذا تجالِسُ الملوكَ؟ فضمَّ رجله خجِلاً طائعاً، وقال: وعِزَّتكَ وجلالك، لا مددتُ رجلي أبداً.

وذكر ابن أخته الجنيدُ عنه أنَّه أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رُئِيَ مضطجعاً أو مادَّاً رجليه في قعودٍ أو جلوس إلاَّ في عِلَّةِ الموتِ.

ويروي الجنيد عنه فيقول:

دخلتُ عليه أعودُه في مرضةٍ أصابته فقلتُ له: كيف تجدُ نفسكَ؟ فقال سريٌّ:

كَيْفَ أَشْكُو إلى طَبِيْبي مَا بِي ... وَالَّذِي قَدْ أَصَابَنِي مِنْ طَبِيْبِي

فأخذتُ مروحةً من قشٍّ لأروِّحَ عليه، فقال لي: يا بن أختاه! كيف يجدُ رِيْحُ المروحةِ مَنْ جوفه يحترق من داخلٍ شوقاً وحبَّاً، ثم أنشَدَ:

القلبُ مُحْتَرِقٌ، وَالدَّمْعُ مُسْتَبِقٌ ... وَالكَرْبُ مُجتَمِعٌ والصَّبْرُ مُفْتَرِقُ

كَيْفَ القَرَارُ عَلَى مَنْ لا قَرارَ لَهُ ... مِمَّا جَنَاهُ الهَوى والشوقُ والقَلَقُ

يَا رَبُّ إِنْ كَان شَيْءٌ لي بِهِ فَرَجٌ ... فَامْنُنْ عَلَيَّ بِهِ مَادَامَ بِيْ رَمَقُ

فقال الجنيدُ له: أيا خالُ! أَوْصِنِي.

فقال: لا تَصْحَبِ الأشرارَ، ولا تشتغلْ عن اللّه بمجالسةِ الأبرار الأخيار.

وقال ابن خلّكان في كتابه «وفياتُ الأعيان»: كان السريُّ دائمَ الذِّكْر للّه، لا يفتر لسانه عن ذكره وتسبيحه، مظهِراً الشوقَ والوجدَ للخالق تعالى، وكان ينشد كثيراً:

---

(1) الورْدُ: الجزْءُ مِنَ القُرآنِ يَقْرأُهُ الإنْسَانُ كلَّ ليلةٍ.

وَلَمَّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِي فَمَالي أَرَى الأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا

فَلا حُبَّ حَتَّى يَلْصُقَ الجِلْدُ بالحَشَى وتَذهَلَ حَتّى لا تُجِيْبَ المُنادِيَا

وكانت وفاةُ سريّ يوم الثلاثاء لسِتٍّ خَلَوْنَ من رمضان سنة 253 هـ / 882 م/ بعد آذان الفجر، ودُفِنَ بعد العصر بمقبرة الشوينزي وحضر جنازته خلقٌ كثيرون، وقبرُه ظاهِرٌ معروفٌ حتّى يومنا هذا، وإلى جانبه قبر ابنِ أخته الجنيد، رحمة الله عليهما.

قِصَّةُ سَرِيِّ السَّقَطِيِّ مَعَ الجَّارِيَةِ اِشْتِيَاقٍ

روى الجُنيدُ عن سريّ السقطي خبر توبتهِ وزهدهِ في الدنيا والسياحة في الأرض فقال: سأل بعض أصحاب السريّ رحمهُ الله: ما كانَ سبب توبتكَ وزهدكَ في هذه الدنيا الفانية؟

فقال: اعلموا وفّقكم الله تعالى أنّني دخلتُ في بعضِ الأيام إلى سوق الجواري أشتري جاريةً تخدمني، فلمَّا وصلتُ عَرَضَ عليَّ النخَّاسُ[1] جوارٍ كثيرةً، فلم يصلح لي من ذلك شيءٌ.

فقلتُ: هل بقيَ عندكَ شيء غير ما أريتني؟

فقال: نعم. بقيتْ عندي جاريةٌ واحدةٌ، غير أنَّها مجنونةٌ.

فقلتُ: مَالي ولشراءِ المجانين. فولَّيْتُ عنه وأردتُ الخروجَ، فدعتني نفسي أن أرجع وأرى تلك الجارية وأقف على خبرها، فعدتُ وقلتُ له: آتيني بتلك الجارية حتى أنظرَ إليها.

فقال: حُبّاً وكرامةً.

وكنْتُ آنذاك تاجراً لي سمعة كبيرة في السوقِ، فلمَّا جاء بها، رأيتُ عليها سمةَ الصلاح والعبادة والتقوى، فقلتُ لها: يا جارية! ما اسمُكِ؟

---

(1) النخَاسُ: تاجرُ الرقِيقِ والعبيدِ والجَوَارِي.

فقلت: اسمي اشتياق، وبي للخالق اشتياق.

فقلتُ لها: يا اشتياقُ! هل لك من قول تختارينه، وعمل تؤدينه؟

فقالت: اختياري قول لا إلـه إلاّ اللّه، محمد رسول اللّه، وعملي في خدمة مولاي، وحياتي وَهَبْتُها له، وأمري فَوَّضْتُهُ إليه.

فقلتُ لها: أشتَرِيْكِ؟ فقالت: على شرط. قلتُ: وما هو؟

فقالت: تكونُ لكَ خدمةُ النهارِ، ولمولاي وخالقي خدمةُ الليلِ.

فقلتُ للنخّاس: كم تريد ثمناً لهذه الجارية؟

فقال: اشتريتُها بعشرة دنانير. فوزنتُ له أحد عشر ديناراً وأخذتُ الجارية ومضيتُ بها إلى الدار، وقلتُ لها: شأنُكِ والجواري فاصنعي مثلهن، فمضتِ الجاريةُ، فلم أنظرْها إلى أن صَلّتِ المغربَ، فلمَّا فرغتْ من صلاتها أقبلتْ إليَّ وقالت: يا مولاي! قد فرغتُ من خدمتِكَ، فهل لي من شيءٍ من رزق مولايَ الكبير؟ فقلتُ نعم. شيء كثيرٌ.

فأخذتها وأتيتُ بها إلى المائدة، فنظرَتْ إلى ألوان كثيرةٍ من الطعام، وقالت: حَسَّنَ اللّه تعالى أعمالك وغَيَّرَ أحوالكَ، وعسى أن يهديكَ إلى ما هو أنفع لكَ. ثمّ ردَّدتْ قوله تعالى:

W ((وكُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ....) C سورة البقرة

غيرَ أن يا نفسُ أخشى عليكِ أن تَتَلَذَّذي اليومَ، فتعصي غداً، ثمّ أخذتْ قرصاً من الخبزِ، وقليلاً من الملح وجعلت تأكل، فلمَّا اكتَفَتْ حمدَتِ اللّه تعالى وشكرتْ نعمتَهُ وقالت لي: يا مولاي! أينَ الموضعُ الذي أخدمُ فيه مولاي الكبير؟ فأوْمَيْتَ لها بيدي إلى مقصورةٍ في جانب الدار، ونمتُ أنا في مقصورةٍ في جانبٍ آخر بعد أن أكلتُ ألذَّ الطعام. وبينما أنا نائم، وقد نامت العيونُ، وأزهرتِ النجومُ، وطُلِبَ الحيُّ القيُّومُ. وإذ بصوتٍ بالباب، وطرقاتٍ تنبِّه الغفلانَ، وتوقظ النعسان، فقلتُ مَنْ بالباب؟

obeikan.com

فقالت: اشتياقٌ. فقلتُ وما تريدين في مثل هذا الوقت؟ قالت: يا مولاي! أما تستحي من هذه الغفلة، وقد سبقكَ الخُدَّامُ إلى عبادة الملك العلاَّم؟! فقلت لها: أنا بالنهار جلبة وبالليل خشبة[1]. فقالت: وفي أي وقت يكون قَطْعُ العَقَبة[2]، إذا كُنْتَ نهارَك هائماً وليلكَ نائماً، فمتى تُرضِي رَبَّاً دائماً، ومَلِكاً عالِماً؟ ثم قالت:

واللّهِ يا بَطَّال لو رأيتهم وقد صَفّوا الأقدام في ليلٍ هادي، وظلامٍ بَادٍ، ومولىً ينادي، إلَيَّ يا عبادي، ثمّ أنشدتْ تقولُ:

يَالَيْلُ كَمْ فِيْكَ مِنْ غُلامٍ ... بَدَّلَ النَّوْمَ بالقِيَامِ

يَخْدِمُ مَوْلاهُ بِاجْتِهَادٍ ... بِلاَ إِقْرَارٍ وَلا مَنَامِ

يقولُ وَالليلُ قَدْ تَقَضَّى ... نَوْمٌ على مقلتي حَرَامِ

وَاللّهِ لا ذُقْتُ طَعْمَ نَوْمٍ ... وَالخَوْفُ دَاخِلَ العِظَامِ

فقلتُ: يا اشتياقَ! لقد هيَّجتِ فيَّ الأشواق، وأضرمتِ خوفاً في الخفّاق زيديني من كلامك يرحمك اللّه تعالى. فأنشدت:

ابْكِ عَلَى عُمْرٍ مَضَى بَاطِلاً ... ابْكِ عَلَى نفسِكَ يَا جَاهِلُ

غَرَّتْكَ الدُّنْيَا بآمالِهَا ... وَأَنْتَ عَنْهَا يا فتى رَاحِلُ

فَلَمْ تَزَلْ تَركضُ في غَفْلَةٍ ... لاَ تَنْسَ ذِكْرَ المَوْتِ يَا غَافِلُ

لاَ تَنْسَ يَوْمَكَ فِي حُفْرَةٍ ... أَنتَ ولا شَكَّ بِهَا نَازِلُ

---

(1) إي بالنهار أعملُ كثيراً وأتعبُ، وفي الليل أنامُ كالخشبةِ لا أتحرَّكُ من الإرهاقِ .

(2) قَطْعُ العَقَبَةِ : اجتيازُ الصِّراط والنجاةُ من عِقابِ اللّهِ .

فأقبلتُ على نفسي وقلتُ بلومٍ وحسرةٍ وعتابٍ: يا نفسُ أما تستحي من الله تعالى؟ مملوكة شِرَاهَا عَشَرَةُ دَنانيرَ تقيمُ عليَّ الحُجَّةَ في غدٍ عند الله تعالى.

ثمّ أقبلتُ عليها وقلتُ لها: يا جارية! سألتُكِ باللّهِ العظيم ألاَ ذكرتِ مولاكِ الصغير عند مولاكِ الكبير.

فبكتِ الجاريةُ وأنشدت:

بَادِرْ بالتَّوْبَةِ وَالإِخْلاَصِ مُجْتَهِدَا وَالمَوْتُ، وَيْحَكَ، لَمْ يَمْدُدْ إِلَيْكَ يَدَا
فَإِنَّمَا المَرْءُ في الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَيِّتٌ اليَوْمَ مَاتَ غَدَا

فقلتُ لها: يا جاريةً على ما لَسْتُ إليه جَارٍ زيديني بما كُنْتُ عنهُ مُدَارٍ يرحمكِ اللّهُ تعالى الخالق الباري، فأنشدتْ تقولُ:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَتمُّ لَهُ السُّرُورْ بَدارٍ سُمِّيَتْ دَارُ الغُرُورْ
وَمَنْ يُمْسِي وَيُصبحُ في أمَانٍ وَيعلمُ أنَّ مَسكنَهُ القُبُورْ

قال سري: ثمَّ انصرفتِ الجاريةُ إلى مكانها، ووقفت بين يَدَيْ مولاها وهي تقول: إلهي نامتِ العيونُ وأزهرتِ النجومُ وأنتَ الحيُّ القيُّومُ. إلهي وخالقي!

قد غلَّقَتِ الملوكُ أبوابَها، ونامَتْ عليها حُجَّابها، وأنتَ بابُكَ للسائلين مفتوح سألتكَ يا مولاي الكبير، وسيّدي وخالقي الخبير، أن تَهَبَ لي عِتقَ مولاي الصغير، إنَّكَ على كلّ شيء قدير.

فإذا بهاتفٍ يُسمَعُ صوتُه يقولُ: يا اشتياقُ! طيبي نفساً، وقِرّي عيناً. فقد وهبنا لكِ عِتْقَ مولاكِ الصغير.

فلمّا أصبح الصباحُ، وأضاء بنوره ولاحَ، أقبلَتِ الجاريةُ وقالت: يا مولاي! قد فرغتُ من خدمة مولاي الكبير، فأمرني بأمركَ.

فقلتُ لها: لقد سمعتُكِ البارحة تقولين: يا مولاي الكبير أسألكَ عِتْقَ مولاي الصغير.

فقالت: قد كان ذلك.

فقلتُ: يا جاريةُ! مَنْ أعتقنا في العقبة، حُقَّ أن نعتقَهُ في الدنيا أنتِ حرّةٌ لوجه اللّه تعالى.

فأخذت الجاريةُ نقابها وجعلتْهُ على وجهها وشرعَتْ تقول: هذا العتقُ الأصغرُ، هذا عِتْقُ المخلوقين، فمتى يكونُ العتقُ الأكبرُ، عِتْقُ ربِّ العالمين؟ ثمّ بكت وأنشدت:

تَمْـرَحُ بالـذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي	وَتُمْسِي يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي
وتخلو خَلْفَ سِتْرٍ مُخْتَفِيَاً	وَرَبُّ العَرْشِ مُطَّلِعٌ حَاصِ
إذَا ما الشيب كَفَّ عَنِ الخَطَايَا	فعُمْرُكَ كُلّ يَوْمٍ فِي انتقَاصِ

ثمّ إنَّ الجاريةَ انصرفتْ عني ولم أرها منذ تلك الساعة، وأقبلتُ أنا على ربّي مستغفراً تائباً خاضعاً له، ومناجياً زاهداً في الدنيا الفانية سائلاً إيّاه حُسْنَ الدَّار الباقية، سائحاً في الأرض حارماً نفسي، قاهراً إيّاها، مواظباً جاهداً في حُبِّ اللّهِ تعالى. وهذا كانَ سَبَبَ تَوْبَتي وَزُهْدِي في الدُّنيا يا قَوْمُ. ثُمَّ أنشدَ سَرِيُّ أمَامَ أصْحَابِهِ وَسائليْهِ كما يقولُ الجنيد:

إِلَيْكَ هَرَبْتُ مِنْ أهْلِي وَمَالِي	وَمِمَّا قَدْ جَنَيْتُ مِنَ المَعَاصِي
فَاقْبَلْ تَوْبَتِي وَاغْفِرْ ذُنُوبِي	إِذَا حَاسَبْتَني يَوْمَ القَصَاصِ
وَأُزْلِفَتِ الجِنَانُ لكلّ بِرٍّ	وَسُعِّرَتِ الجَحِيْمُ لِكُلِّ عَاصِ
فَارْحَمْنِي إِلَهِي وَاعْفُ عَنِّي	فَمَالِي غيرَ عَفوكَ مِنْ خَلاَصِ

قالَ الجُنيدُ: وَبهذَا القولِ خَتَم السَّريُّ حَدِيثهُ مَعْ أصْحَابهِ وَغادَرهمْ سَائِحاً مُتابعَاً زُهْدَهُ وَعِبَادَتَهُ حتّى توفّاهُ اللّهُ، رحمةُ اللّهِ عَلَيْهِ.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِالعَابِدِ الزَّاهِدِ سَرِيِّ السَّقْطِيِّ (رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ)، وَصَلَّى اللّهَ عَلَى خَاتم الأنبياءِ، والحَمْدُ للّهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهِ الأَرْضِ والسَّمَاءِ.

obeikan.com

6 ــ قِصَّةُ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ (τ)

هو أبو القاسم الخزّار، ويقال له القواريري، أصله من نهاوند، وُلِدَ ببغداد سنة/200 هـ، 828 م/، ونشأ فيها، اشتُهر بصحبة الحارث المحاسبي وخاله سري السقطي، لازَمَ التعبُّدَ والزهدَ ففتَح الله عليه علوماً كثيرة، وتكلَّم على طريقة المتصوّفين أمثال سفيان الثوري.

وكان وِرْدُهُ في كلّ يومٍ ثلاثمئة ركعةٍ، وثلاثين ألف تسبيحة. ومكث أربعين سنةً لا يأوي على فِرَاش، ففُتح عليه من العلم النافع والعمل الصالح أمور كثيرة لم يحصِّلهَا غيره في ذلك الزمان. وكان يعرف سائر فنون العلم ويجيدُ التحدّثَ فيها والمناقشة دون وَقْفَةٍ أو تعثّرٍ حتّى أنَّه كان يقولُ في المسألةِ الواحدة وُجُوْهَاً كثيرة لم تخطر للعلماء ببال.

وكان ابن سريج يرافقه ويستفيد منه في الفقه والعلم، وقد سأله ذات مرّة شخصٌ عن مسألةٍ فأجابَهُ فيها بإجَابات كثيرةٍ، فقال له: يا أبا القاسم! لم أكن أعرفْ فيها سوى ثلاث إجابات ممّا ذكرتَ فأَعِدْهَا عليَّ، فأعادَها بإجابات أخرى كثيرة غير التي ذكرها فقال: والله ما سمعتُ هذا قبل اليوم. فأعادها بإجابات أخرى غير ما ذكر فقال: لم أسمع بمثل هذا فأَمْلِه عليَّ حتى أكتبه.

فقال الجنيد لئن كنتُ أجريهِ فأنا أُمْلِيه. أي أنَّ الله هو الذي يُجري ذلك على قلبي ويُنْطِقُ بهِ لسَاني، وليس هذا استفادٌ من كُتُبٍ ولا من تَعَلُّمٍ، وإنّما هذا فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ يُلهِمنِيْه وعلى لساني يجريه.

فقال له ابن سُريح: ومن أين استفدتَ هذا العلم؟

قال الجُنيد: من جلوسي بين يدي الله أربعين سنة.

وسُئِل االجنيدُ عن العارف باللهِ، فقال: مَنْ نطقَ عن سرِّكَ وأنتَ ساكت.

وقال له خاله سَرِيّ مرّةً: تكلَّمْ يا جُنيدُ على الناس فلمْ يرَ الجنيدُ في نفسه لذلك موضعاً. فرأى في المنام رسول الله (ﷺ) وهو يقولُ له: تَكَلَّمْ على الناس يا جُنيدُ. فذهب الجنيدُ إلى خاله سَرِيّ، فقال سريٌّ له: يا جنيدُ لم تسمعْ منّي عندما قلتُ لك تكلّمْ على الناس وأرشِدْهُم حتى سمعتَ ذلك من رسول الله في منامكَ. فعجب الجنيدُ من أمْرِ خالهِ وصار يعظ الناس ويوضّح لهم كثيراً من أمور دينهم ودنياهم.

وقال الجنيدُ مرّةً: ما انتفعتُ بشيءٍ أكثر من انتفاعي بأبياتٍ سمعتُها من جاريةٍ تقولُ:

إذا قُلْتُ: أَهْدَى الهَجْرُ لِي حُلَلَ البِلَى تَقُولِيْنَ: لَوْلاَ الهَجْرُ لَمْ يَطِبِ الحُبُّ

وَإِنْ قُلْتُ: هَذَا القَلْبُ أَحْرَقَهُ الجَوَى تَقُولِيْنَ لي: إِنَّ بالجَوَى شَرَفَ القَلْبُ

ولَمَّا حضرتْهُ الوفاةُ سنة (298 هـ، 928 م) جَعَلَ يتلو القرآنَ ويُصلّي فقيلَ له: لو رفَقْتَ بنفسِكَ في هذا الحال.

فقال: لا أحدٌ أحوجُ منّي إلى ذلك الآن، وهذا أوانُ طيِّ صحيفتي.

وتوفَّاهُ خالِقُه وَدُفِنَ بعد جنازةٍ حَضَرَها خَلْقٌ كثيرون في مقبرة الشوينزي بجانب قبر خاله سريّ السقطيّ رحمةُ الله عليهما.

قِصَّةُ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ مع العُبَّادِ العَشَرَةِ (τ)

قال الجنيدُ بن محمد البغدادي رضي اللهُ عنه: سافرتُ مرّةً على ساحلِ البَحْرِ بالبصرة، فرأيتُ وَقْتَ العشاء عَشَرَةَ أنفارٍ من بعيد، كانوا قاعدين على سجّادات، فاستغربتُ أمرهم، وَظَنَنْتُ من طريقة جلوسهم أنَّهم من المتصوّفين العابدين، ولكنّي لم أُشاهدْ معهم أية وسيلةٍ أو أداةٍ من أدوات الصوفية. فلمَّا وَصَلْتُ إليهم ألقيتُ السلام، فقاموا جميعاً لاستقبالي وردّوا السلام وعانقوني وقالوا: أهلاً بأبي القاسم الجنيد، فاستغربتُ كيف عرفوني وإن لم أشاهدهم قبلاً. لكنّهم جلسوا وأطرقوا إلى الأرض ولم ينظروا لبعضهم ولم ينطقْ أحدٌ منهم بكلمة، واستمرّوا

obeikan.com

على هذه الحال حتّى حان موعد الصلاة فقاموا وقَضُوا وِرْدَهم ثمّ نهضَ منهم واحدٌ ودخلَ البحرَ ولا أدري كيف فَعَل ذلك، إلاَّ أنَّه عاد بإحدى عَشْرَة سمكةً مشويةً، رغم أنّي لم أشاهد ناراً أو حطباً، فوضعَ أمامَ كلّ واحد منهم سمكةً، وأعطاني سمكةً، وانفرد هو بسمكةٍ، ثمّ انشغلَ كلّ منهم بحاله في صلواتِهِ وعبادتهِ، حتّى قَرُبَ الصبحُ وأذّنَ المؤذِّنُ، فقاموا للصلاة جميعاً، فأدُّوا فرضهم، وقاموا وأخذوا سجّاداتهم ودخلوا البحر، ومشوا على الماء، وعندما أراد خادمهم الذي أحضر السمك مساء أن يسير معهم ويمشي على الماء، غاص في البحر وكاد يغرق فالتفتوا إليه وقالوا: يا عبدَ اللّهِ! مَنْ خاننا فليس مِنَّا.

ثمّ غادروا وتركوه حزيناً، يبكي نادماً، فسألتُهُ عن الذنب الذي اقترفه، فقال: عندما كُنَّا نصلِّي ونتعبَّدُ خالقنا، أقسمْنَا على الوفاء والإيثار وإنكار الذات، فمَنَّ اللّهُ علينا بكراماتٍ لم يمنحها إلاَّ لأوليائه الصالحين، وعندما أحضرتُ السمكات من البحر مساءً، خصَّيْتُ نفسي بأكبر السمكات وراودتني نفسي وطمعتُ بالزيادة، فأدركوا ذلكَ، وحاسبني خالقي بأن صرفني عنهم، وها أنا ذا نادِمٌ على فعلتي ما بقيتُ في هذه الدنيا.

قال الجُنيدُ: فحمدتُ اللّهَ وشكرتُهُ على نعمهِ وبقيتُ أنظر إليهم من بعيد وأنا أتحسَّرُ على فرقتهم، وغادرتُ ساحل البحر والخادمُ في موضعه يبكي بكاءً شديداً فقلتُ له قبل مغادرتي إيّاه:

إنَّ وليَّ اللّه يجب أن يكون جوّال الفكر، جوهريَّ الذِّكْرِ، عظيمَ الحَمْلِ، كثيرَ العِلْمِ، جميلَ المنازعةِ، قريبَ المراجعةِ، أوسعَ الناس صدراً، وأذلَّ الناس نفساً، ضحكتُهُ تبسُّماً، واستفهامُه تعلُّماً، مذكِّراً للغافلِ معلِّماً للجاهل، لا يؤذي مَنْ يؤذيه، ولا يخوضُ فيما لا يعنيه، كثيرَ العَطَاء، قليلَ الأذى، وَرِعَاً عن المحرَّماتِ، وقَّافاً عن الشهواتِ، عَوْنَاً للغريب، أباً لليتيم، بِشْرُهُ في وجههِ، وحزنُه في قلبه، مشتغِلاً بفكره، مسروراً بفقرهِ، نطقهُ أحلى من الشَّهْدِ وأصلبُ من الحديد، لا يكشفُ سِرّاً ولا يهتكُ سِتْراً، إلْفُهُ التُّقَى وخُلْقه الحيا، كثيرَ الخير، قليلَ الزلل، حركاتُهُ أَدَبٌ وكلامُه عَجَبٌ، لا يشمتُ بمصيبةٍ ولا يُذْكرُ أحدٌ عنده بغيبةٍ راضياً

obeikan.com

صبوراً، قانعاً شكوراً، صدوقَ اللسان، لا سبَّاباً ولا نمَّاماً، ولا مُرتاباً ولا حقوداً ولا حسوداً ولا عجولاً، قولُهُ موزونٌ وقلبُه محزونٌ فمَنْ يكونُ بهذه المثابة يتقبَّل اللّه منه التوبة والإنابة.

ثمّ غادر الجنيد في دربه ومضى يتعبّد ربّه الواحد الأحد، الفرد الصمد.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِالعَابِدِ الزَّاهِدِ الجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ (τ) والحَمْدُ للّهِ أَوّلاً وآخراً وظاهراً وبَاطِنَاً،وَصَلَّى اللّهَ عَلَى نبيِّه أشرفِ الأمم وسَيِّدِ العُرْبِ والعجم.

7 ــ قِصَّةُ رَابِعَةَ العَدَوِيَّةِ (τ)/ 100 هـ ــ180هـ /

هـي رابعـة بنـت إسماعيـل القيسـي، مـن آل عُتيـك بـني عَـدوة مـن بطـون قيـس، ولذلك تُلقَّب برابعة القيسية العدوية، وكنيتها (أمّ الخير)، وكونها وُلِدَتْ وعاشت وماتت بالبصرة فهي تُلقَّبُ بـ (رابعة البصرية)، وقد خَلَطَتْ كُتُبُ التراجم والمناقب بينهما وبين كثيراتٍ تسَمَّيْنَ برابعة، وخاصة (رابعة بنت إسماعيل الشامي) وذكروا عنها أخباراً وقصصاً لم تحدثْ وَهَمَ فيها الكثيرون ونَسَبُوهَا إلى العدوية، وخاصّةً لقاء رابعة الشامية بحسن البصري وذي النون المصري، فرابعة العدويّة كانت في العاشرة من عمرها يوم وفاة الحسن البصري فكيف سيعرضُ عليها الزواج وتدور بينهما مساجلات صوفية، وكذلك ذو النون المصري الذي وُلِدَ بعد خمس سنوات من وفاة رابعة العدوية فكيف إذاً ستتُوبُ على يديه كما ذكرتْ بعضُ القصص والأخبار، لكن رابعة العدويّة بعيدةٌ كلّ البعد عَمّا وَصَفَها بعض المؤرخين الذين لم يعتمدوا منهج البحث عن الحقيقة والسعي وراءها، وإنّما اعتمدوا على النقل غَثِّهِ وسمينهِ فأخطؤوا وخاصَّةً في فترة انقطاع رابعة عن المساجد ووقوعها في الرقِّ والعبودية، وهذا ما لم نَشَأْ أنْ نقعَ فيه ونحن الباحثون عن الحقيقة.

وأمّا عن ولادة رابعة العدوية فقد كانت في مطلع القرن الثاني للهجرة سنة (100هـ) في البصرة في أسرةٍ فقيرةٍ ضمن كوخٍ صغير لعابدٍ زاهدٍ هو إسماعيل القيسي البصري، وكان هذا الكوخ معروفاً بين البصريين باسم (كوخ العابد).

وكانت ولادة رابعة ـ كما يرويها المؤرّخ الصوفي فريد الدين العطّار ـ حَدَثاً بارزاً في حياة الأسرة، حيث لم يكن في الأسرة أولاد ذكور، بل ثلاثُ إناثٍ وكانت الطفلة الجديدة هي الرابعة فسُمِّيَتْ لذلك (رابعة)، وليلة ولادتها لم يكن في بيت أهلها ما يصلحُ للوليد عند ولادته، فلم يكن ثمَّةَ مصباح للنور، ولا نقطة سَمْنٍ للخلَاص، ولا قطعة قماش يُلَفُّ بها المولود، وكان الأب الصالح قد عاهَدَ اللّهَ ألاّ يطلبَ من عبدٍ من عباده شيئاً، ولكنه استجاب لضراعة زوجته بأن يُشفقَ على

المولـودة، فـذهب يطـرقُ أبـواب الجـيران ولكـن هيهـات للحجـارة أن تلـينَ بمـاء الدموعِ، فعاد خائباً حزيناً لا يدري ما يفعل، فأقبلَ على الصلاة والتسبيح، ثم خَلَدَ للنوم فرأى في منامه النبي محمد (J) يقول له:

لا تحـزن فهـذه الوليـدة سـيّدةٌ جليلـة، وإنَّ سـبعين جماعـة مـن أمّـتي يرجـون شفاعتها، فقُمْ واذهب على عيسى زادان (أمير البصرة آنذاك) واكتُبْ له رقعةً تقول له إنَّك رأيتني وأمرتُك أن تذهبَ إليـه، وتقـول لـه: إنَّـكَ يـا عيسـى تصلِّي مئة ركعة كل ليلةٍ، وفي ليلة الجمعة أربعمئة، ولكنّك في الجمعة الأخيرة نسيتَ. ألا فلتدفع أربعمئة دينار لصاحب هذه الرقعة كفّارةً عن هذا النسيان.

وفي الصباح كتب إسماعيل الرسالة وأرسلها مع الحاجب إلى الأمير فلمّا قرأهـا أمر بإعطائه أربعمئة دينار، وإحضاره إليه، ثم راجَعَ نفسَـه وقـال: بل أنـا أذهـب إليـه إجلالاً لمن أرسله، وسأتولى بنفسي العناية بابنته الجليلة القدر.

وقد كانت رابعة منذ طفولتها الباكرة ذكيّةً مؤمنةً حفظت القرآن الكـريم، وحافظت على الصلاة، وقد ظهر وجدانها الديني منذ الصغر فعندما قدَّم والـدها طعاماً إلى الأسرة، أقبل الجميع عليه إلاّ رابعة فلمّا سألها أن تُقْبِلَ على الطعام قالـت له: إنّي أجعلُكَ في حِلٍّ من حرام أو شبهةٍ تطعمنيه.

فقال الأب ممتحناً: أرأيتِ يا رابعة إن لم نجد إلاَّ حراماً؟

فقالت: نصبرُ يا أبتِ في الدنيا على الجوع خيرٌ من أن نصبر في الآخرة على النـار وعذابها.

وقـد شـاءت الأقـدارُ أن يمـوتَ الأبُ والأمُّ تباعـاً، ورابعـة مازالـت في حـداثتها، فعانَـتِ اليُتْمَ والفقْـرَ والحاجـةَ. وحَلَّ بالبصـرة جفـافٌ وقحـطٌ وانتشـرت المجاعـة بـين الفقراء، فغادرت رابعةُ وأخواتُها الكوخ، وأخَذْنَ يضربْنَ في الأرض يلتمِسْنَ القُـوْتَ، وفَرَّقَ الدهر بينهُنَّ فغدَتْ رابعة وحيدة فقيرة لا تجد من يحنو أو يعطف عليها.

obeikan.com

وحَدَثَ أثناء تجوالها أن وقعتْ بين أيدي قطاع الطرق وتُجَّار الرقيق حيث باعَها أحدُهم بستَّةِ دراهم إلى تاجرٍ غليظِ القلب فعَانَتْ رابعةُ وتحمَّلَتْ وصبرتْ وزاد إيمانُها الذي غدَا قُوْتَهَا والأملُ والعزاءُ غايتَها ومسعَاهَا الذي تلوذ به.

كان نهارُها همّاً ورهْقَاً، وليلُها تُطْلِقُ فيه روحَها للنور والإيمان والشوق والحنين للخالق.. وأحسَّتْ ببواكير جديدة مبهمةٍ حزينةٍ حيث سيطرت عليها خَشْيَةٌ قاسيةٌ من غضَبِ اللّهِ فتزداد عبادةً وتسبيحاً، فهي تنشدُ منه شيئاً جديداً، لا تريدُ مالاً ولا رِزْقاً بل رِضَى الخالق عليها، وكانت تناجي رَبَّها باكيةً قائلةً:

«إلهي! أنا يتيمةٌ معذَّبةٌ أرسفُ في قيود الرقِّ، وسوف أتحمَّلُ كلَّ ألمٍ وأصبرُ عليه، ولكنّ عذاباً أشدَّ من هذا العذاب يؤلمُ روحي، ويفكِّكُ أوصال الصبر في نفسي، منشؤه رَيْبٌ يدور في خلدي هل أنت راضٍ عني، تلك هي غايتي؟ ».

وحَدَثَ ذات يوم أن أرسلها سيّدُها للسوق لشراء بعض الحاجيات وأثناء سيرها في أزقّة البصرة لمحَها رجُلُ سوءٍ فأعجبَهُ شبابُها وحياؤها فلاحقها بنظراته الجريئة فاضطربت وارتجفت فتعثرت وسقطت على الأرض فانكسرت ذراعُها وأُغشي عليها، فلمَّا استردَّتْ صوابهَا رفعَتْ رأسها تناجي ربَّها:

«رَبَّاهُ! قد انكسرتْ ذراعي، وأَنا أُعاني الألمَ واليُتْمَ وسوفَ أتحمَّلُ كُلَّ شيءٍ وَأصْبِرُ عليه، فهل أنتَ راضٍ عنّي يا سيّدي، إلهي هذا ما أتوقُ إلى معرفتهِ؟؟».

وبدأ الحبُّ الإلهي ينمو ويزداد في قلب رابعة، الحبُّ الذي ستُعرف به ويخلّد اسمها على مر الأيّام، صار يملأ حياتها، يلوّنُ ضراعتها ويعطِّرُ عبادتها، وينير تسبيحها، وأخذتْ أحلام رابعة تفيض بالنور، وأخذت نداءاتٌ ترفُّ حولها وتطوف بها.

كانت رابعة تعيش في آفاقٍ من العناية التي يهبها اللّه لمن يحب ويرضى، وفي إحدى المرّات وأثناء استغراق رابعة في مناجاتها الحارّة لخالقها سمعت صوتاً يقول: (لا تحزني ففي يَوْمِ الحِسَابِ يتطلّعُ المقرَّبونَ في السَّماء إليكِ ويَحْسِدُونَكِ عَلَى مَا تكونينَ فيهِ.) فزاد هذا الهاتفُ حبَّها وثقتها باللّه، وزاد اندفاعها في نيل رضى خالقها. وأخذت تتأمَّلُ في الكون وترى قدرة اللّه في كلّ شيءٍ، في الفجر والأزهار

والطيور والأنهار في كل شيء ترى قدرة الله وجماله وجلاله، كلُّ شيءٍ ناطقٌ بوحدانيةِ اللّهِ ومحبَّتِهِ وتسبيحهِ وتقديسهِ.

وقد حدثَ أن استيقظ سيّدها ذات ليلة[1] فسمع صوت مناجاةٍ حارَّة فأخذ يتتبّع الصوت إلى غرفة رابعة، فلمَّا نظر من خصاص الباب رأى رابعةَ ساجدةً تصلّي وتقول: « إلهي! أنتَ تعلمُ أنَّ قلبي يتمنَّى طاعتك ونور عيني في خِدمتكَ، ولو كانَ الأمر بيدي لما انقطعتُ لحظةً عن مُنَاجاتكَ ولكنَّكَ تركتني تحتَ رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادِكَ » وشاهد سيّدها أثناء دعائها وصلاتها قنديلاً فوق رأسها يحلِّقُ غير معلَّقٍ بسلسلةٍ أو غيرها، وضوءُهُ ينير الغرفة، فعاد فَزِعَاً مفكِّراً ساهماً، وفي الصباح دعا رابعةَ وقال لها: أي رابعة وهبتكِ الحرية فإن شئتِ بقيت هنا ونحن هنا جيمعاً في خدمتكِ، وإنْ شئتِ رحلتِ أنَّى رغبتِ. فاختارت المغادرة وودعتهُ وانقطعت للعبادة وأخذت تلوذ بحلقات المساجد وتتصّل بالرعيل الأول من رجال التصوف في البصرة أمثال إبراهيم بن أدهم، ومالك بن دينار وسفيان الثوري وشفيق البلخي... وكانت هذه الحلقات تترنّم بالمواجيد والأناشيد الهاتفة بالحبّ والاستغفار والمناجاة، وكانت رابعة حينها في الثانية عشرة من عمرها ذابلة العود، رقيقة البدن تعيش حرّةً من كلّ شهواتِ الدنيا وبريق الحياة عبدة لمولاها وخالقها، بريئة من كل ما يبعدها عن خالقها، نذرت نفسها للمحاريب والتسبيح وأقبلت على المناجاة والعبودية تنشد الحب الخالد للباقي الدائم الخالد.

ولم تمكث رابعة طويلاً في المساجد، بل تركتها إلى العزلة والعبادة والتسبيح والصلاة والوجد الإلهي، فكانت تقضي ليلها ونهارها بالصلاة، وتقول:

« قد نامتِ العيونُ، وغَفَل الغافلون، وبقيت رابعة عبدتكَ الخاطئة بين يديك، فلعلّكَ تنظر إليها نظرةً تمنعُها بهَا مِنَ النومِ عن خدمتكَ، وعزَّتكَ وجلالِكَ لا أنامُ عن خدمتكَ في ليلٍ ولا نهارٍ إلاّ غَلَبَةً حتى ألقاكَ».

---

(1): رابعة والحياة الروحية في الإسلام. طه عبد الباقي سرور.

وكانت رابعةُ إذا صَلَّتِ العِشَاء قامت على سطحٍ لها، وشدّتْ عليها درعها وخمارها وقالت:

«إلهي! أنارَتِ النجومُ وَنامَتِ العُيون وَغَلقَّتِ الملوكُ أبوابها، وَخَلاكُلُّ حَبيبٍ بحَبيبهِ وهذا مَقَامي بينَ يَديْكَ»، ثمّ تُقْبِلُ على صلاتها فإذا كان وقتُ السَّحَر وطلعَ الفجرُ قالت: «أَقبِلْتَ مِنِّي إلهي؟ فَهَذا الليلُ قد أدبَرَ، وهذا النَّهارُ قد أسْفَرَ فليْتَ شِعْري أَقبلْتَ مِنِّي لَيْلَتِي فَأَهْنَأ، أَمْ رَدَدْتَهَا عَليَّ فَأعزَى؟ فوعزَّتِكَ هذا دَابي مَا أَحْيَيْتَنِي وَأعنْتَني، وَعزَّتكَ لو طَردتنِي عَنْ بابِكَ مَا بَرحْتُ عَنْهُ لِمَا وَقعَ فِي قلبي منْ مَحَبَّتِكَ».

ورُوِيَ أنَّ محمَّد بن سليمان الهاشمي كَتَبَ إلى رابعة العدوية يطلبها للزواج، وكان من أغنياء البصرة: «أما بعد: فإنّ اللّه ملَّكني كلَّ يومٍ ثمانين ألف درهم، وأنا أصيّرها ومثلها إليكِ فأجيبيني لِما سألتُ».

فكتبتْ إليه: «أما بعد: فإنَّ الزهدَ في الدنيا راحةُ البدَنِ، والرغبةَ فيها تورِّثِ الهَمَّ والحُزْن، فَهيِّءْ أمرَكَ، وقَدِّمْ لمعادك وكن وصيَّ نَفْسِكَ ولا تجعلِ الرجال أوصياءك، وَصُم الدَّهْرَ واجعل فِطْرَكَ الموتَ، وأمَّا أنا فلو خوَّلني اللّه أمثال ما خوَّلَكَ وأضعافه ما سرَّني به ولا أُشْغِلَ نفسي عن ذكر اللّه طرفة عين والسلام». وكانت تقول:

رَاحَتِي يَا أُخْوتي فِي خَلْوَتِي ... وَحَبيْبِي دائماً فِي حَضْرَتِي
لَمْ أَجِدْ لِي عَنْ هَواهُ عِوَضَاً ... وَهَوَاهُ فِي البَرايَا مِحْنَتِي

فرابعة العدوية رضي اللّه عنها ـ كما يقول عنها فريد الدين العطار ـ ذات الخدْر الخاص المستورة بستر الإخلاص، المتّقدة بنار العشق والاشتياق المتحرّقة إلى القُرب والاحتراق، الفانية في الوصال كأنها مريمٌ ثانيةٌ عذراءُ بتولٌ صافيةٌ صفيَّةٌ.

وقد حوّلت رابعةُ الزهد إلى محبَّةٍ، والرهبةَ إلى رغبةٍ والتعقيدَ إلى بساطةِ والفلسفةَ إلى إيمانٍ والجَدَلَ إلى عملٍ، والفِقْهَ إلى تعبُّدٍ وأخلاقٍ، والحياةَ إلى خفقةِ قلبٍ ووثبةِ روحٍ نحو المثَلِ الأعلى، خالقِها ومولاها، ونور آفاقها.

ودخلَ على رابعة العدويَّة رياحُ القيسي، وصالحُ بن عبد الجليل فتذاكروا الدنيا وأقبلوا يذمونها فقالت رابعةُ: **«إنّي لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم»**

قالوا: ومن أين توهَّمْتِ علينا؟

قالت: **«إنَّكُم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلَّمتم فيه»**.

وروى المناوى في كتاب (الكواكب الدريِّة ج1ـ ص 109) ذمَّ بعضُهم الدنيا عند رابعة فقالت: قال رسول الله (J): (مَنْ أَحَبَّ شَيْئًاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ). ذكركم لها دليلٌ على بطالة قلوبكم إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها.

وقال سفيانُ الثوري مرّةً لأصحابه: هَيَّا بنا إلى المؤدِّبَةِ التي لا أجدُ من أستريح إليه إذا فارقتُها، فلمَّا دخل عليها سفيانُ رفع يده وقال: اللهمَّ إنّي أسألكَ السلامةَ. فبكت رابعة؟

فقال لها: ما يبكيكِ؟

قالت: أنت عرَّضتني للبكاء.

فقال: كيف؟

قالت: أما علمت أنَّ السلامةَ ترك ما فيها، فكيف وأنتَ متلطّخ فيها؟!.

وقال سفيانُ أيضاً: كنتُ عند رابعة ذات ليلةٍ فصلَّتْ حتّى مطلع الفجر وصلَّيْتُ أنا كذلك، وفي الصبح قالت رابعةُ: علينا أن نصوم اليوم شكراً للّه على هذه الليلة والصلوات التي أقمناها فيها[1] قال وبقيتُ عند رابعة يوماً وليلة نتحدّث عن الطريق وأسراره بحرارةٍ بلغت حدّاً نَسِيْنَا معه أنّني رجل وأنّها امرأة، فلمّا فرغنا من الحديث شعرتُ بأنني لم أكن إلاّ فقيراً بينما هي كانت ملكةً متوَّجة.

وكانت رابعة تقول: **ليس من المستطاع أن تميّز بالنظر بين المقامات المختلفة في الطريق إلى الله، ولا أن تصلَ إليه باللسان، فلتجعلْ قلبَكَ مستيقظاً، فإذا استيقظ رأيتَ بعيونه الطريقَ وكان في وِسْعِكَ بلوغَ المقامِ.**

(1) تذكرة الأولياء. فريد الدين العطّار.

لقد استطاعت رابعة بحبِّها الإلهي دون طمع في جزاء وثواب، ولا خوفٍ من عِقَاب أن ترتقي في معارج التصوّف، وأن تجعل التوبةَ عندها مقاماً وحالاً، وشرطُها الصدقُ والإنابةُ، ولها ألوانٌ، فتوبةُ العوامِ من الذنوب، وتوبةُ الواصلين من الخواطرِ، وتوبَةُ العارفين من السوانح وتوبةُ المحبِّين من العجز عن القيام بحقِّ المحبوب.

وقال رجلٌ لرابعة: إنّي قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصي فلو تُبْتُ هل يتوبُ اللّهُ عليَّ؟ فقالت: لا بل لو تاب عليك لتُبْتَ.

وسئلَتْ رابعة يوماً متى يكون العبد راضياً؟

فقالت: إذا سرَّتْهُ المصيبة كما سرَّتهُ النعمةُ. فعندما وقع الجرادُ على زَرْعٍ لها فأكلَهُ فابتسمَتْ ونظرتْ إلى السماء وهتفَتْ: «**إلهي رزقي عندك فما نقصني الجرادُ شيئاً، ولاَ سلبني رزقاً وإنّما هو قضاؤكَ والرزق عندك**».

وأصابَ رأسُها رُكْنَ جدارٍ فأدماه فلم تلتفتْ إلى ذلك، فقيل لها: أما تُحِسِّيْنَ بالألم؟ فقالت: شغلني بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما تَرُونَ.

وعند رابعة أن الشكرَ يكون على رؤيةِ المنَّان لا على منَّتِهِ فقط، وهو أعلى ذروة في مقام الإنسان، أي أنّك ترى اللّه قبل أن ترى المنَّةَ وبالتالي تراه قبل أن ترى أي صورة من صُوَرِ الوجود.

وكان منهجُ رابعة في حبِّها للّه ليس كمثله شيء، فهي تحبُّ اللّهَ لذاتهِ، لا طمعاً في جنَّتِهِ ولا خوفاً من ناره. وكانت تقول في مناجاتها: «**إذا كنْتُ أعبدُكَ خوفاً مِنْ نارِكَ فاحرقني بنار جهنّم وإذا كنْتُ أعبدكَ طمعاً في جنَّتِكَ فاحرمنيها، أمَّا إذا كنْتُ أعبدُكَ مِنْ أجل محبَّتِكَ فلا تحرمني من مشاهدة وجهكَ ذي الجلال والإكرام**».

لقد كان معراج رابعة هو الفناء الكامل في اللّه بلا وساطة، كانت بكلّ روحها وحواسها، ووقدة قلبها وأشواق حسِّها متعلِّقة بمولاها تعلّقاً أذهلها عمّن سواه. وقد كانت تصلّي ألف ركعة في اليوم والليلة، فقيل لها: ما تريدين بهذا؟ فقالت: لا أريد به ثواباً، بل أفعله لكي يُسرَّ به رسول اللّه يوم القيامة فيقول للأنبياء: انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها.

لقد كانت حياتها مثلاً أعلى للعابدين والذاكرين، عاشت حياتها من الفجر إلى الغروب للذكر والمناجاة والتأمل والمراقبة، فقد كانت تصلّي الليل كلّه فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعةً خفيفةً[3] حتّى يُسْفر الفجر فتثبُ من مرقدها فزعة تقول: ((**يا نفسُ كم تنامين وإلى كم تقومين، يوشكُ أنْ تنامي نومةً لا تقومين منها لصرخةِ يومِ النشور**)).

وقد أجمع كل من عرف رابعة أنّها كانت تقوم الليلَ لربِّها، ومكثت أربعين عاماً تصلّي الصُّبْحَ بوضوءِ العشاء[1] وأنّها خلال هذه السنوات الطوال لم تكن ترفع رأسها إلى السماء حياءً من اللّه تعالى وأنّ لسانها لم يفترْ أبداً عن ذكرٍ أو نجوى أو قراءة قرآن كريم.

ومن مناجاتها التي تعبّر عن حبّها للّه تعالى وتوحيدها له:

((**إلهي مَا أَصْغَيْتُ إلى صَوْتِ حَيَوانٍ، ولا حفيفِ شجرٍ، ولا خريرِ ماءٍ ولا ترنُّمِ طائرٍ، ولا تنعُّمِ ظِلٍّ، ولا دويّ ريحٍ ولا قعقعةِ رعدٍ، إلاّ وجَدتها شاهدةً بوحدانيتكَ دالّةً على أنَّه ليسَ كمثْلِكَ شيءٌ**)).

وروى أبو محمد السرّاج القارئ عن مسمع بن عاصم في كتاب (مصارع العشّاق) في الصفحة 136:

(قالت لي رابعة: «اعتللتُ عِلّةً قطعتني عن التهجد وقيام الليل، فمكثتُ أيَّاماً أقرأُ جزئي إذا ارتفع النهار لما يُذْكَر فيه أنَّه يعدِلُ قيام الليل، ثمّ رزقني اللّه عزّ وجلَّ العافية، فاعتادتني فَتْرةٌ[2] في عقب العِلّة، وكنتُ قد سَكَنْتُ إلى قراءةِ جزئي بالنهار، فانقطع عنّي قيامُ الليل، وبينما أنا ذاتَ ليلةٍ راقدةٌ رأيتُ في منامي كأنّي رُفِعْتُ إلى روضةٍ خضراءَ ذاتِ قصورٍ ونَبْتٍ حَسَنٍ، فبينا أنا أتجوّلُ فيها أتعجَّبُ من حُسْنِهَا إذا أنا بطائرٍ أخضرَ وجارية تطارده كأنَّها تريدُ أخذَهُ، فشغلني حُسْنُها عن

---

(3) صفوة الأصفياء ـ ابن الجوزي. ج4. ص 58 .

(1) صلاة الصبح بوضوء العشاء تعني عدم نومها وبقاءها تتعبّد لأنّ النوم ينقض الوضوء .

(2) فَتْرَةٌ: حَالةٌ من الكَسَلِ والخُمُولِ والفُتُورِ في النَّشاطِ .

حُسْنِهِ، فقلتُ لها: ما تريدين منه؟ دَعِيْهِ فواللّهِ ما رأيتُ طائراً قط أَحْسَنَ منه، فقالت الجاريةُ: حَسَنَاً. ثمّ أخذتْ بيدي فدارت بي في تلك الروضة حتّى انتهتْ بي إلى باب قصرٍ، فاستفتحت[3] ففتحَ لها، ثمّ قالت: افتحوا لي بيت (لمقة)[4] ففُتِحَ لها باب شَاعَ منه شعاعٌ استنار من ضوء نوره ما بين يدي وخلفي، وقالت: ادخلي، فدخلتُ إلى بيتٍ يحارُ فيه البصرُ تلألؤاً وحُسْناً ما أعرفُ له في الدنيا شبهاً أشبِّهه به. فبينا نحن نجول فيه، إذ رُفِعَ لنا بابٌ يُنْفَذُ منه إلى بستانٍ، فأَهْوَتْ منه وأنا معها، فتلقانا فيه وُصَفَاء[1] كأنَّ وجوههم اللؤلؤ، وبأيديهم المجامرُ[2] فقالت لهم أين تريدون؟ قالوا: نريدُ فلاناً قُتِلَ في البَحْرِ شهيداً.

قالت: أفلا تجمروا هذه المرأة. قالوا: قد كان لها في ذلك حظٌّ فتركَتْهُ. فتركت الجاريةُ يدها من يدي ثمّ أقبلتْ عليَّ وقالت:

صَلاَتُكِ نُورٌ وَالعِبَادُ رُقُودٌ ... وَنَوْمُكِ ضِدٌّ للصَّلاَةِ عَنِيْدُ

وَعُمْرُكِ غَنْمٌ[3] إنْ عَقِلْتِ وَمُهْلَةٌ ... يَسِيْرُ وَيَفْنَى دَائِمَاً وَيَبِيدُ

ثمّ غابتْ من بين عيني، واستيقظتُ من تبدّي الفجر، فواللّهِ ما ذكرتُها وتوهَّمْتُها إلاّ طاشَ عقلي وانكسرت نفسي».

وروى فريد الدين العطّار في كتاب (تذكرة الأولياء):

(كانت رابعة العدوية صائمةً وفي أثناء مناجاتها وعند غروب الشمس وليس لديها طعامٌ غمْغَمَتْ: إلى متّى تعذبين نفسكِ يا رابعة، وتحمّلينها مشقّةً ليس بَعْدَها مشقّةٌ؟

---

(3) اِسْتَفْتَحَتْ: طلبتْ الإذنَ بالفتح، وهُنا المقصودُ فتحُ الباب من القصرِ.

(4) لمقة: لم يَرِدْ شَرْحُها في أي مَرْجعٍ، كونُها وَرَدَتْ في حُلمِ رابعة ولم يُعْرَفْ معناها، وأظنُّها اسم علم لَملاكٍ من الجنَّةِ، والله أعلم.

(1) الوُصَفَاءُ: مفردها الوَصِيْفُ وهو الخادم، وهم هنا من الملائكة.

(2) المَجَامرُ: مفردها مِجْمَرة وهي أداة يُحْرَق فيها الجَمْر مع البخور.

(3) غَنْمٌ: إي اغتنامٌ واكتسابٌ، أي عُمر المرء يجب أن يستغلَّهُ بالعبادةِ والعملِ الصالح قبل انتهائه فهو سائر إلى الزوالِ مهما طالَ.

عندها صَكَّ أذنها طَرْقٌ على الباب فذهبَتْ لترى مَنْ بالباب: فإذا برجل في يده إناءٌ ممتلئٌ طعاماً تركَهُ وانصرف، فتناولت الإناء ووضعتْهُ في زاوية الغرفة وتشاغلت بإصلاح القنديل، فدخلتْ هرَّةٌ فأكلت ما في الإناء، فلمَّا عادت رابعةُ وجدتِ الإناءَ خاوياً، فقالت في نفسها: لا بأس أفطر على ماء. وذهبت لتحضر الماء فانطفأ القنديل، فلم تُطِقْ احتمالاً فقالت: اللهمَّ لِمَ هذا العذاب؟ وأحسَّتْ ندماً فأطرقت في استحياء، ثمّ سمعتْ صوتاً يقول: لو شئتِ يا رابعة وَهَبْنَا لَكِ ما في الدنيا ومَحَوْنا ما في قلبك من نار العشق، لأَنَّ قلباً مشغولاً بحُبِّ اللّه لا يُشْغَل بحبّ الدنيا).

لقد كانت رابعة مثالاً حيَّاً على الحب الإلهي والزهد في الدنيا فقد كانت تنام على حصيرةٍ بالية وكان موضع الوسادة قطعة من الآجر وكانت تشربُ من إناء مكسور وتطوي ليلها مسهَّدةً تصلّي للّهِ تعالى وتناجيه:

وَزَادي قَلِيْـــلٌ مَـــا أرَاهُ مُبْلِغِــــي   أَلْلـــزَّاد أبكـــي أَمْ لِطُـــوْلِ مَسَـــافتي

أتَحْرِقُنِـــي بالنَّـــارِ يَـــا غَايَـــةَ المُنَـــى   فَـــأَينَ رَجَـائي فيــكَ أَيــنَ مخــافتي

وجاء مرّةً رجلٌ إلى رابعة يفتخر بكثرة حَسناته على الفقراء ويسألُهَا عن بعض الأمور، فقالت له:

يا عبدَ اللّهِ! اكتم حسناتكَ كما تكتُم سيّئاتك، فالتوبةُ لا تتحقَّق للتائب حتى يبكي في التوبة قدر ما ضحك في المعصية.

وقيل أنّه تقدّم لها رجل يطلبُها للزواج، وكان معروفاً بين الناس بمكانته وعلمه وعبادته للّه، فقالت له: إنّي أسألُكَ أربعَ مسائل، فإن أجبتني تكون بعلي. قال: سَلِيْ ما شئتِ.

قالت: إذا نُودِيَ (قومٌ في الجنَّةِ وقومٌ في النار) أتعلمُ مع أي الفريقين أكون أنا؟

قال لها: هذا عِلْم غيبٍ والغيبُ لا يعلمُه إلاَّ اللّه.

ثمّ قالت: إذا يوم الحِسَاب جُمِعَ البشر، وتطايرت الكُتُب، فمنهم من يُقدَّم كتابه باليمين ومنهم من يقدَّم كتابه بالشمال، أتعلمُ أني أقدّم كتابي باليمين أم بالشمال؟

فأجابها كالسابق، ثم قالت: إذا وقّفني ربّي بين يديه وسألني أتعلم أني أقدر على ردّ الجواب؟ فأجابها كالسابق.

فقالت: أراك لم تجبني على سؤالٍ واحدٍ ممّا سألتُكَ، والذي أحبّه قادر على الإجابة وهو يغنيني عن كل البشر. لكنّه ألحَّ عليها.

فقالت: أسألك مسألة صغيرة: العقل مع العبد كم جزء؟

قال: عشرة أجزاء.

قالت: كيف تقسّمُه على الرجال والنساء؟

قال: تسعة أجزاء للرجال، وجزءٌ للنساء.

قالت صحيح، والشهواتُ كيف تقسِّمُها؟

قال: جزءٌ للرجال، وتسعةٌ للنساء.

فقالت: وكيف أنا بجزءٍ واحدٍ من العقل ملكتُ تسعة الأجزاء من الشهوات، وأنت بتسعةِ الأجزاء من العقل لم تملك إلا جزءاً من الشهوات؟ أنت أجهل الجاهلين أما تستحي، واللّه لا أبدّل الباقي بالفاني.

ولَمَّا حَضَرَتْ رابعةَ الوفاةُ دَعَتْ خادمتها (عَبْدَة) وقالت لها: يا عَبدَةُ لا تؤذني بموتي أحداً، ولُفِّيْني في جُبَّتِي هذه، لكنَّ نفراً من الصالحين عرفوا بقُرْبِ موتها فحضروا بيتها، فقالت لهم: انهضوا واخرجوا ودعوا الطريقَ مفتوحةً لرُسلِ اللّه تعالى، فنهضوا وخرجوا، فلمَّا أغلقوا الباب سمعوا صوت رابعة وهي تقول الشهادة،

فأجابها صوت: W

obeikan.com

((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً {28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي {29} وَادْخُلِي جَنَّتِي {30})) C

سورة (الفجر)

ثمّ سلَّمَتْ رابعةُ الأمَانَةَ لِمَنْ أحبَّتْ وعَشِقَتْ راضيةً مرضيَّةً سنة 180 هـ.

قالت خادمتها عبدةُ: رأيتُ رابعةَ بعد موتها بسَنَةٍ في منامي عليها حُلَّةٌ من إستبرق وخمارٌ من سندس أخضر لم أرَ شيئاً أحسن منه. فقلتُ: أي رابعةُ ما فعلْتِ بالجُبَّةِ التي كفَّناكِ بها والخِمارِ الصوفِ؟ قالت: إنَّه واللّه نُزِع عنّي وأُبْدِلْتُ به هذا الذي ترينه عليّ وطُوِيَتْ أكفاني وخُتِم عليها ورُفِعتْ في عليين لتكمل لي بها ثوابي يوم القيامة.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِ شَهيدةِ العشْقِ الإلهي رَابعةَ العدويَّة (رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا)، والحَمْدُ للّهِ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ.

8 ـ قِصَّةُ العَابِدِ ذِي النُّونِ المِصْرِيِّ (τ)

هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، وُلِدَ سنة 185 هـ، وكان والده نوبياً، ولقبه ذوالنون (صاحب الحوت) تشبُّهاً له بسيرة النبي يونس (υ)، كان فائق الشأن، وأوحد وَقْتِهِ علماً وورَعاً وحالاً وأدباً، سعوا به إلى المتوكّل فاستحضره من مصر، فلمَّا دخلَ عليه وَعَظَهُ فبكى المتوكِّل وَرَدَّهُ إلى مصر مكرَّماً. كان رجلاً نحيفاً تعلُوه حُمرةٌ، ليس بأبيض اللحية، وعلى يديه كانت توبة رابعة بنت إسماعيل الشامية. كان يقول:

لا تسكنُ الحكمةُ معدةً مُلئتْ طعاماً. تجوَّلَ كثيراً وعرف الكثير، وكانت توبته عندما أراد الخروج من مصر إلى بعض القرى فنام في الطريق[1] وعندما فتح عينيه رأى قنبرةً عمياء سقطت على الأرض ثم انشقَّت الأرض فخرج منها سكرجتان (عُلبتان) أحدهما ذهبية اللون والأخرى فضيّة وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء، فجعلت القنبرة تأكل وتشرب، فلمّا رأى ذلك قال:

حسبي قد تُبْتُ ولزمْتُ البابَ، إلى أن قبله الله عزَّ وجلَّ. وكان يقول: مدار الكلام على أربع، حب الجليل، وبغض القليل واتِّباع التنزيل وخوف التحويل. والتوبة نوعان: توبةُ العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. ومن لم يَدْرِ قدر النِّعم سُلِبَها من حيث لا يعلم. وكانت وفاته بمصر سنة 245 هـ ودُفِنَ بها. رحمة الله عليه.

العَابِدُ ذِو النُّونِ المِصْرِيُّ وتِجْوَالُهُ وَأقوَالُهُ

---

(1) الرسالة القشرية . أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري . الصحيفة الثامنة . شرح هوامشها شيخ الإسلام زكريا الأنصاري .

روى ابن خلّكان، وأبو نعيم الحافظ قصّةَ ذي النون المصري وأخباره مع عابدٍ وُصِفَ بالجنون، ولقائِه بحكيمٍ عابدٍ باللّه مفتون، وطبيب للرُّوحِ معالج.. وكثيرٌ من أقواله ومواعظه، صارت على مرّ الأيّام دُرراً، فقالا: وُصِفَ لذي النون المصري رجلٌ من أهلِ المعرفة والحكمة في جبل اللُّكام[1] فقصده وسأل عنه خلقاً كانوا مجتمعين للحديث والتفقّه في الدين، فقالوا له: مَالَكَ والمجانين تسأل عن أحدهم؟

فقال لهم مستغرباً: وماذا رأيتم من جنونه حتى تنعتوه بالمجنون؟

فقالوا: نراه هائماً ساهياً، يُكَلَّمُ فلا يُجيب، ويتكَلَّمُ فلا يُفقَهُ قولُه، ولا يُجابُ، ينوحُ دائماً على نفسه، ويبكي حياته ويكثر النواح ويزيد بؤسه.

فقال ذو النون لهم: ما أحسنَ ما وصفتم، وأسوء ما اتصفتم، فنِعْمَ صِفَاتٍ ذكرتم، وبِئْسَ صفةٍ أطلقتم. دلُّوني على هذا المجنون علَّني بدائه أكتوي ومِنْ عِلْمِهِ أرتوي.

فقالوا: هو في وَادٍ كثير الشجر، شائك الطرقات بعيد المنحدر.

فذهب ذو النون إلى ذلك الوادي، فلمّا أشرف على الوادي سمعَ صوتاً محزوناً يبكي ويناجي خالقه، فنظر فإذا هو فتىً حَسَنُ الوَجْهِ قد ذهبَتْ عنه المحاسنُ وبقيَتْ رسُومُهَا، فسلَّمَ عليه، فردَّ عليْه السلامَ وبقي شاخِصاً ساهماً وهو يقول:

نَزَّهْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَزِيْنَتِهَا — فَأَنْتَ وَالرُّوْحُ شَيْءٌ غَيْرُ مُفْتَرِقِ

فَإِذَا ذَكَرْتُكَ فَإِنَّ مُقْلَتِي قَلقَةً — مِنْ أَوَّلِ الليْلِ حَتَّى مَطْلَعِ الفَلَقِ

وَمَا تَطَبَّقَتِ الأَجْفَانُ عَنْ سَنَةٍ — إلاَّ رَأَيْتُكَ بَيْنَ الجفْنِ وَالحَدَقِ

وعندما انتهى الشابُّ مِن شعره، قال لذي النون:

يا ذا النونِ مَالَكَ وَطَلَبُ المجنونِ؟

---

(1) اللُّكام: جبَلٌ في شِمَالِ سُورية .

obeikan.com

فقال ذو النون: ما الذي حبَّبَ إليكَ الانفراد والانعزال، وجعلكَ تهيمُ في الأوديةِ والسهول بين الغابات والجبالِ؟ وهل أنتَ مجنونٌ كما يدّعون؟

فقال: قد وصفوني بالمجنون، أمّا حبُّه فقد هيمّني، ووجدي به قد أفردني.

فقال ذو النون: وأينَ محلُّ الحبِّ منكَ؟

فقال الشابُّ: هو في سواد القلبِ. ثمّ صرخ الشابُّ صرخةً اِرْتَجَّ لها الجبلُ، وقال يا ذا النونِ! هكذا موتُ الصادقين.

ثمّ سقط الشابُ ميتاً، فقام ذو النون بغَسْلِهِ وتكفينه، ثمّ دفنِهِ، رحمة اللّهِ عليه. ثمّ قام يصلّي ويقول إلهي بأيّ رِجْلٍ أمشي إليكَ، أم بأيّ عينٍ أنظر إليك، أم بأيّ لسانٍ أناجيكَ، أم بأيّ يَدٍ أدعوكَ. لكنَّ الثّقةَ بكرمِكَ حملتني على الجرأة. إلهي كيف يناجيكَ بالصلواتِ اِمرؤٌ يعصيكَ في الخَلَوات لولا حِلْمُكَ؟ أم كيفَ يدعوكَ في الحاجات مَنْ ينساك عند الشهوات لولا فضلُكَ؟ اللَّهمَّ ارزقنا حُسْنَ الإقبال عليك والإصغاء إليك، لا قوّة على طاعتكَ إلاَّ بعنايتك، ولا حول عن معصيتك إلاَّ بمشيئتكَ، ولا ملجأ منك إلاَّ إليكَ، ولا خيرُ يُرْجى إلاَّ في يديكَ اللهمَّ قد أتيناكَ طالبين فلا تردَّنا خائبين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وقال ذو النون: بينما أنا سائح في الجبال، إذ مررتُ بوادٍ كثير الشجر والنباتِ والطيرِ والثمرِ، فجعلتُ أتفكَّرُ في قدرة اللّه تعالى وحُسْنِ صنعتِهِ، فسمعتُ صوتاً أَهَلَّ مدامعي، وهَيَّجَ نارَ أضالعي، فسِرْتُ متتبِّعاً الصوتَ فإذا الكلامُ يخرجُ من باب مغارةٍ، فدخلتُ حَذِراً فرأيتُ رجُلاً من أهل التعبُّدِ والاجتهاد، قد بَراهُ[1] النحول وعليه آثار القبول[2] وسمعتُه يقول: سبحان من اختار قلوبَ العاشقين لمناجاته بين يديه، وكَفَى نفوسَهم يومَ الطلب فهي لا تعتمدُ إلاَّ عليه، وأفردَها لمحبَّتهِ فهي لا تحنُّ إلاَّ إليه.

فلمَّا أحسَّ بوجودي قُرْبَهُ سَكَتَ، ونظرَ إليَّ، فقلتُ له:

---

(1) بَراهُ: أضعفَهُ وأتعبَ جسده، وأصابَه بالنحولِ.

(2) القَبولُ: الإقبالُ على عبادة اللّهِ والزهدُ والتقشُّفُ.

السلامُ عليكَ يا عبدَ اللّه، يا حليفَ الأحزانِ، وقرينَ الأشجانِ.

فقال الشيخ: وعليك السلامُ ورحمةُ اللّه وبركاته، ما الذي أَوْصَلكَ إلى مَنْ أفردَهُ الخوفُ عن الأنامِ، واشتغلَ بمحاسبةِ نفسِهِ عن التقطُّعِ في الكلام؟

فقلتُ له: أوصلتني الرغبةُ في التصفُّحِ والاعتبارِ، والنظرِ في قدرةِ الواحدِ القهَّارِ، والتنزُّهِ في رياضِ أسرارِ الأولياءِ الأطهارِ.

فقال لي: يا فتى! إنّ للّهِ عباداً أوقدَ في قلوبهم نارَ الشفقةِ بمحبوبهم، فأرواحهم إليه تسرحُ في رياضِ الملكوتِ، وتنظرُ إلى ما ادُّخِرَ لها من خزائنِ الجبروت، فأعينهم إلى جمالهِ نظرة ولرحمته ناظرة.

ثم بكى الشيخ بكاءً شديداً وقال: إلهي لمِثْل أعمال أوليائك وَفِّقْني، وبهم ألحقني. ثمّ تأوَّهَ وصاحَ، ووقع على الأرض ميتاً رحمةُ اللّهِ عليه، فنظرتُ بجانب المغارة فإذْ بكفنٍ أبيضَ منشورٍ فوقَ حجرٍ كبيرٍ، وإناءٍ من فخَّارٍ مملوءٍ ماءً، فغسلتُهُ، ثمّ كفنَّتُهُ، ودفَنْتُهُ بعد أن صلَّيتُ عليهِ، رحمةُ اللّهِ عليهِ، وأنشدتُ أقولُ:

للّهِ قَــوْمٌ أَطَــاعُوهُ وَمَــا قَصَــدُوا ... سِــوَاهُ إذَا نَظَـرُوا الأَكْـوَانَ بـالعِبَرِ

وَالوَجْـدُ وَالشَّـوْقُ وَالإذْكَـارُ قُـوَّتُهُمْ ... وَلازَمُـوا الجِـدَّ فِي الإدْلاَجِ[1] وَالبُكَـرِ

وَبَــادَرُوْا لِرِضَــاهُ دَائِمَــاً وَسَــعُوْا ... قَصْدَ السَّبيْلِ علـى سَعْيٍ بمُـؤْتَمَرِ

وَآمَنُـوا وَاسْـتَقَاموا مِثْلمـا ائتُمِـرُوا ... وَاسْـتَغْرَقُوا وَقْـتَهُمْ بالصَّـوْمِ وَالسَّـهَرِ

وَجَاهَـدُوْا وَانتَهَـوا عَمَّـا يُبَاعِـدُهُمْ ... عَـنْ بَابِـهِ وَاسْـتَلانوا كـلَّ ذي وَعَـرِ

جَنَّـاتُ عَـدْنٍ لَهُـمْ مَـا يَشْـتَهُوْنَ بِهَـا ... فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ بَيْنَ الـرَّوْضِ وَالزَّهَـرِ

لَهُـم مِـنَ اللّهِ مَــالاَ شَـيءَ يعدِلُــهُ ... سَـمَاعُ تسـبيحهِ والفـوزُ بـالظَّفَـرِ

---

(1) الإدلاجُ: العتْمَةُ وَالظلمةُ والليلُ.

obeikan.com

وقال ذو النون: مررتُ ذات يومٍ ببلدةٍ صغيرةٍ فوجدتُ طبيباً وحولَه جماعةٌ من الرجالِ والنساء، يمسكون قواريرَ في أيديهم، وكلُ واحدٍ منهم يعرضُ عليه عِلَّتَهُ، وهو يصفُ لكلِّ عِلَّةٍ دواءً، ويصبُّ لهم في قواريرهم حَسْبَ عِلَلهم، فتقدَّمتُ منه وقلتُ: أيُّها الحكيم! صفْ لي دواءً للذنوب فكان الحكيمُ ذا فِراسةٍ وبراعةٍ، فأطرقَ برأسه للأرضِ مدَّةً وتفكَّرَ ثمّ نظرَ إليَّ وكأنَّهُ عرف غايتي من السؤال وقال: يا ذا النون! إن وصفتِ لكَ هذا الدواء تفعله؟

قلتُ: نعم. قال: خُذْ عروقَ الصَّبْر، ووَرَقَ الفَقْر، وإهليلجَ[1] الخشوعِ وإبليلج التواضعِ، ثم أَلْقِ الجميعَ في هاون التوبةِ، ثم اسحقهم بقهْرِ التقوى، واعصمْهُم باعتصام العصمة، ثمّ ضَعْهم في جَام الرضى، ثمّ رَوِّحهم بمروحة الحمدِ، ثمّ ألقِ عليهم تَمْرَ الطَّاعةِ وانزعْ منهمُ نوى العُجْبِ، وارْمِ عليهم دقيقَ العبوديةِ، وصُبَّ عليهم ماءَ الصفاء، وأضِف الكُلَّ إلى إناء الشكر، ثمّ أوقدْ تحتهم نارَ الخوف، ثمّ حَرِّكهُم بملعقة الاستغفار، ثمّ فرِّغْهم في قَدح المناجاة، وبرِّدْهم بأنفاس المراقبة، وامزجهم بماء التوكل، وتمضمضْ بماء الوَرَع، فإذا أنت فعلت ذلك فإنك لا تعود إلى معصيةٍ أبداً.

فقلتُ: ما أجملَ ما سمعتُ، وأجلَّ ما نطقْتَ، وإنّي له قد فعلتُ ثمّ شكرتُه ومضيتُ في دربي، متابعاً بحثي عن كلّ ما يرضي ربّي.

وكان ذو النون المصري رضي اللّه عنه يحثّ الناس على الزهد في الدنيا وعدم التعلّق بحبّها ويقول: كما أنّ الحجرَ لا يلين في الماء مهما لبث فيه، كذلك القلب إذا تعلّق بحبّ الدنيا لم تنفعه المواعظ ولم يلِنْ، وكما أنّ البيتَ بلا سكّانٍ يعمّرونه وينشرون فيه الحياة، كذلك القلب إذا تُرِكَ بلا وعظ وإرشاد خَرُبَ كما يخرب البيتُ دون ساكنيه.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِ وَأَقْوَالِ العَابِدِ الزَّاهِدِ ذِي النُّونِ المِصْرِيِّ (رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ)، وَالحَمْدُ للّهِ الّذِي لاَ إِلَهَ سِوَاه، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى رسُولِهِ وَمَوْلاَه.

---

(1) الإهليلج : شجر هندي ثماره متطاولة من الرأسين ومنتفخة من الوسط، وكذلك الابليلج .

obeikan.com

قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ بْنِ المُهَذَّبِ (τ)

روى العَابِدُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ المُهَذَّبِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ حكايته مع العابد الشاب الذي وُسِمَ بالجنون فقال: مررتُ ذات يومٍ بسوق الرقيق، فوجدتُ غلاماً ينادي الدلاَّلُ عليه: مَنْ يشتري عبداً، أبيعُه بكلّ العيوب وبأرخص الأثمانِ حِفظاً للجيوب؟ فقلتُ له: ما العيبُ الذي في هذا الغلام الذي جعلك تبيعه بأرخص الأثمان؟ فقال: اسألهُ بنفسك يا مولاي! فتعرف منه شكواي.

فدنوتُ من الغلام وقلتُ له: يا غلامُ! ما العيبُ الذي فيك حتّى زهد صاحبك منك؟

فقال يا سيدي: عيوبي كثيرة ولا أدري بما شهرتي!

فقلتُ للدلاَّلِ: أخبرني بالعيب الذي فيه. فقال: به دَاءُ الجنون والصَّرَعِ فقلتُ للغلام متفحِّصاً: وكيف يأتيكَ هذا الصَّرَع، أفي كلّ يوم، أم أسبوع أم كل شهر؟ فأجاب: يا سيّدي! إذا استولى داءُ المحبَّة على العقل وسائر الجَسَدِ، فإنَّ العقلَ يطيشُ بذِكْر الحبيب، ويُحدِثُ على العقل استغراقاً وعلى القلب سكوناً فيعتقده الجاهل جنوناً.

فقلتُ في نفسي: إنَّ هذا الغلام ليس بمجنون وإنّما هو من أولياء المَلِكِ العلاَّم، ربِّ الأنام.

فقلتُ للدلاَّل: كم ثمن هذا الغلام؟

قال: مئتا درهم. قلتُ: وأزيدك عليها عشرين.

ففرح الدلاَّلُ الذي لم يكن يتوقَّعُ ربحاً من بيع هذا الغلام، ثمّ وَزَنْتُ له الثمنَ وسرتُ مع الغلام إلى منزلي، فلمَّا وصلنا أَمَرْتُه بالدخول لكنَّهُ توقَّف وسألني: يا سيدي! ألكَ أهل وزوجة وأولاد؟

قلتُ: نعم. فقال: ومَنْ يستطيع أن ينظرَ إلى المحرّمات؟

قلتُ: قد أبحت لك ذلكَ.

فرفض مجدَّداً وقال: معاذ اللّه، أنا سأبقى هنا خارج الباب وأي حاجةٍ تطلبها مني أدَّيتُها من مكاني ولن أدخل أبداً. فتركتُه وقبلتُ معه بعد أن رأيتُ إصراره، ثمّ أخرجتُ له الطعام فقال: أنا صائم. فأعدتُ الطعام، ولمَّا كان العشاء قلتُ في نفسي حان وقتُ إفطاره، فأخرجتُ الطعام، فقال: أنا طاوٍ[1]، فأقام عندي في دهليز الدار فخرجتُ إليه منتصف الليل فوجدتُه يصلّي ولم يشعر بوجودي، فلمَّا فرغ من صلاته سجد وبكى بكاءً شديداً وصار يناجي اللّه قائلاً: إلهي غلَّقتِ الملوكُ أبوابها، ونامت عليها حُجَّابُها، وبابُك للسائلين مفتوحٌ. إلهي أزهرتِ النجومُ ونامتِ العيونُ، وأنتَ الحيُّ القيوم الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم. إلهي فَرِشَت الفرشُ وخَلا كُلُّ حبيبٍ بحبيبهِ، وأنتَ حبيبُ المجتهدين وأنيسُ المستوحشين.

إلهي إن طردتني عن بابكَ فبابُ من ألتجئ؟ إلهي إن قطعتني عن جنابكَ فجنابُ مَنْ أرتجي؟ إلهي إن عذّبتني فإنّي مستحقٌّ العذابَ والنِقَمَ، وإن عفوت فأنتَ أهلٌ للجُود والكرمِ.

ثمّ جلس ورفع يديه وبكى وقال: سيّدي لك أَخْلَصَ العارفون، وبكَ نَجَا الصالحون، وبرحمتِكَ أنَابَ المقصّرون. يا جميل العفو أذقني بَرْدَ عفوكَ وحلاوةَ مغفرتكَ، وإن لم أكنْ أهلاً لذلكَ، فإنَّكَ أهل التقوى وربُّ المغفرةِ.

قال عبد اللّه: فتركتُه وقد أشعل فؤادي حديثُه، وأوقدَ ناراً في صدري بكاؤُه ودَخَلْتُ الدار دون أن أُعَكِّرَ عليه خَلْوته.

فلمَّا أصبح الصباح وأنار النورُ والفجرُ لاح، خرجتُ إليه وقلتُ له: كيف نِمْتَ البارحةَ؟

فقال: يا سيدي! كيف ينامُ مَنْ يخافُ النارَ، والعَرْضَ على الملكِ الجَبَّارِ، والتوبيخَ على الذنوب والأوزار.

---

(1) الطوى:الجُوعُ، والطاوي الذي يتعمد الجوعَ ليلاً لغايةٍ ما كالصَّائم نهاراً .

ثمّ بكى طويلاً، فأدهشني بمدى صِدْقه في حُبّه لله، وزهده في الدنيا، فقلتُ: مِثْلُكَ لا يكون عبداً لغير الله، اذهبْ فأنتَ حرٌّ لوجه الله تعالى.

فقال: يا سيّدي! قبل عتقكَ لي كان لي أَجران، أجرٌ في العبودية، وأجرُ الخدمة، وقد ذهب عني أحدهما. أعتقكَ الله من نار جهنّم.

فحاولتُ دَفْعَ نفقتِهِ إليه لتساعده في أموره وإصلاح شأنه فأبى قبولها وقالَ: المتكفِّلُ بأرزاقِ العبَادِ حيٌّ لا يموت، وهو يرزقني مثلما يرزق الطير والمخلوقات كافّةً، فالطيرُ تغدو خِماصاً[1] وتعود بِطَاناً[2].

ثمّ خرج هائماً على وجهه ولا أدري أين ذهب ولم أرَهُ منذ تلك الساعة، رضي الله عنه ورحمه الله إن كان ميّتاً. ثمّ جعلْتُ أتفكّرُ في هذا العابد الشاب ومدى خضوعه لسلطان محبوبه وخالقه، وتفطُّر قلبه خوفاً ووَرَعاً وحُبّاً وشوقاً، فجعلتُ أقولُ: واشوقاهُ إلى أرباب القلوبِ، واحسرتاهُ على فَوَاتِ المطلوبِ. يا محبوساً في سجن الغَفْلَةِ لو أشرفتَ على وادي الرَّجَا لوجدتَ خياماً مضروبة على شاطئ بحر الصفا، سُكّانها قليلاً ما يهجعون، وكثيراً ما يصلّون ويقومون وعيونُهم لا تعرفُ إلاَّ السهرَ والبكاءَ، وقلوبُهم تطفحُ بالصبر والدعاء والرجاء، ولسمعْتَ أطيار أشجانهم على أغصان أحزانهم تترنّم بأشجان خفقاتهم، وهم بالأسحار مستغفرون، لَذَّ لهم السهرُ، وصفَا وقتُهم من الكدَرِ، وراقَ لهم وقتُ السَّحَر، وخَلُوا بالمحبوبِ وفازوا بالمشاهدة والنظر، ثمّ جعلتُ أُنْشِدُ:

هَذَا الحَبيبُ مَعَ الأَحْبَابِ قَدْ حضَرَا — وَسَامَحَ الكُلَّ عمَّا قَدْ مَضَى وَجَرَى

وَقَدْ أَدارَ عَلَى العُشَّاقِ خَمْرَتَهُ — صَرْفاً يكادُ سَنَاهَا يَخْطِفُ البَصَرَ

يَا سَعْدُ كرِّرْ لَنَا تَذْكَارَهُ فَلَقَدْ — بَلْبَلْتَ أَسْمَاعَنَا يا مُطْرِبَ الفُقَرَا

---

(1) الخمَاصُ: تعني جائعةٌ خاليةُ البطونِ من الطّعامِ.

(2) البِطَانُ: تعني شبعانة ممتلئة البطون.

وَمَالَ رُكْنُ الهَوَى، مَالَتْ مَعَاطِفُهُ ... لاَ شَكَّ أَنَّ حَبِيْبَ القَوْمِ قَدْ حضَرَا

فَفِي غَدٍ تَنْظُرُ الأَعْلاَمُ وَقَدْ رُفِعَتْ ... ببَابِهِم، عَلَمَاً للوَصْلِ قَدْ نُشِرَ

وَمَجْلِسُ الأُنْسِ بالمَحْبُوبِ يَجْمَعُهُم ... وَالكُؤُوْسُ دَائِرَةٌ مَا بينهم سَحَرَا

وَمَنْ سَقَاهُمْ تَجَلَّى لا شَبِيْهَ لَهُ ... حَاشَاهُ يُشْبِهُهُ شَمْسٌ ولا القَمَرَا

مُنَزَّهٌ عن شَرِيْكٍ فِي مَلاَحَتِهِ ... مُوَحَّدٌ فِي عُلاَهُ لَيْسَ فِيْهِ مِرَا[1]

هَذَا السَّمَاعُ الذي تُشْفَى الصُّدُوْرُ بِهِ ... هَذَا الحَبِيْبُ الَّذِي قَدْ هَيَّم الفِكَرَا

(1) المِرَا : يعني المِرَاءَ، وَالمَقْصُودُ النِّفَاقُ وَالشَّكُّ .

obeikan.com

10 ــ قِصَّةُ العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار (τ)

رُويَ عن العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار أنّه كان يحتطبُ مع الشيخ العابد أبي اسحق القراري، رَضِيَ اللّهُ عَنْهُما، ويبيعان الحطبَ ويعيشان بقسمٍ من ثمنه ويتصدّقان بالقسم الأكبر. فصادفَ أن اتَّفقا ذاتَ يومٍ على أن يصعدا الجبلَ من الغَدَاةِ ويحتطبا، وساعدا بعضهما البعض، وحدَثَ أن سبقَ عليٌّ أبا اسحق إلى الجبل، فاحتطبَ وجعل ينتظرُ أبا اسحق الذي أبطأ عنه، ثمّ صار يطوف عليه في الجبل عَلَّه يدركُه أو يقف له على خبرٍ، فبينما هو كذلك إذ شاهد أبا اسحق وهو جالس متربِّعٌ على الأرض، وقد نام بقُرْبِهِ سَبْعٌ عظيمٌ، وقد أسند السبعُ رأسَهُ على حِجْرِ أبي اسحق، وهو ينشُّ الذبابَ عن السبع النائم، فقال عليٌّ مستغرباً تأخّرُهُ لا تصرُّفه:

ما هذا يا أبا اسحق؟

لقد انتظرتك طويلاً، وقد أنهيتُ حزمتي وكنتُ عازماً على العودة!

فقال أبو اسحق: اعذرني على التأخير والإبطاءِ، فقد التجأَ هذا السبعُ إليَّ متعباً جائعاً فأطعمتُه من بعض طعامي، ونام من شدَّة تعبهِ فرفقتُ به، ولم أشأْ إيقاظه، فاسبقني إلى بيع حطبك وأنا أنتظره حتّى ينتبه من نومه فألحق بكَ.

فتركه ابنْ بكّار ومضى نازلاً الجبلَ، يحملُ حزمةَ الحطبِ على ظهرهِ، وبينما هو في طريق النزول في الجهة الأخرى من الجبل رأى صخرةً كبيرةً وعليها كيسٌ، فاقترب من الصخرة وأمسكَ الكيسَ الذي عَلاَهُ الغبارُ لشدّة ما مرَّ عليه من الزمن في هذا الموضع، وفتح الكيسَ فإذا فيه ألفُ دينار، فقال عليّ:

لا إله إلاّ اللّه، وسبحان اللّه، مالي ولهذا المال فقد كفاني اللّه سبحانه رزقي، ولكنّني سآخذه وأتصدّق به على الفقراء والمحتاجين فهذه رزْقةٌ من اللّه توزّع على عباد اللّه المساكين.

فأخذَ الكيسَ وتابع نزوله فمرَّ على عبدٍ أسودَ متعب الحال، مطروحٍ على وجهه، مكسورِ الرِّجْلِ، وعند رأسه حزمةٌ من الحطب كان قد احتطبها يروم بَيْعَها، فقال عليٌّ في نفسِهِ وقد رأى حالة العبدِ: ما أجدُ موضعاً يُصرَفُ فيه هذا المال أحقّ من هذا العبد المتعَبِ.

فاقترب منه وأجلَسَهُ وسألَهُ عن حاله، ثمّ أخرج من الكيس عشرةَ دنانير وقال له: خُذْ هذا المال وأصلِحْ به شأنَك واستعِنْ به على حالكَ.

فرفع العبدُ رأسه وقال: ضع هذا المال في الكيس وأَعِدِ الكيسَ إلى مكانه على الصخرةِ، ولا تتصدّق من غير مالِكَ.

فاستغرب عليٌّ هذا القول منه وسأله عن الخبر، فقال له: لقد مرَّتْ عَليَّ سنةٌ وأنا أصعد هذا الجبل وأمرُّ فيها بهذا الكيس يومياً وهو ملقىً على الصخرة، ولم أعلمْ ما فيه إلاَّ الآن، لكنَّني عرفتُهُ من شكله والغبار الذي تراكم عليه لطول المدَّةِ، فكيف أنتَ رغبتَ في الدنيا وأخذتَ ما لا يحلُّ لك أخذه وأنتَ عَليٌّ بْنُ بَكَّار العَابِد الزاهد؟ فخجل عليّ من كلامه، وعَلِمَ أنَّ هذا العبد هو من أولياء اللّه الصالحين فاستأذنهُ بعد أن ساعده بالنهوض، وأعاد الكيس مكانه، وعاد إلى رفيقه أبي اسحق الذي كان قد غادره السبعُ فوجدَه قد أنهى احتطابه وأخبره بما وقع له مع العبد الأسود. فقال له أبو اسحق: إنّ هذا العبدَ هو رجلٌ صالحٌ زاهدٌ، يحتطبُ كلّ أسبوعٍ مرّةً، ثمّ يبيع الحزمة بدرهم فيتقوَّت منه بقيّة أيام الأسبوع، ولا يقبل صدقةً من أحد. فسبحان الذي أغنى عبادَهُ عن عبادِهِ بحمده وتقواه.

وَهَذا بَعْضُ أَخْبَارِ العَابِدِ عَليّ بْنِ بَكَّار مع أبي اسحق وَالعَبد الأَسْوَدِ، وَالحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَالمين.

11 ــ قِصَّةُ العَابِدِ أَبي حَمْزَةَ الخُرَسَانِي (τ)

روى العَابِدُ أَبو حَمْزَةَ الخُرَسَانِي ما جرى معه أثناء حَجِّه لبيت مكّة المشرَّفة فقال: حَجَجْتُ سنةً من السنين قاصداً زيارة الكعبة وأداء مَنَاسك الحجّ فبينما أنا أمشي في الطريق، والحرارةُ شديدةٌ، والقيظُ أَذْبَلَ النبت، والظمأ سار في العروق، رأيتُ بئراً في الطريق، فاقتربتُ منها علّي أجدُ ماءً أروي به ظمئي، فما وجدتُ حبلاً ولا دلواً أُخرجُ به الماءَ، فمددتُ رأسي أنظر قاعَ البئرِ وعمقَ الماءِ، فغلبني رأسي وسقطتُ في البئرِ، فنازعتني نفسي أن أصرخ وأستغيث طالباً النجدةَ والعونَ من الناسِ الذين ربَّما مرُّوا في الطريقِ، ثمّ قلتُ في نفسي: لا واللّهِ لا أستغيث ببشَر، واللّهُ خالقي عالمٌ بحالي وهو الأَوْلَى بي أن أستعينَ به. فما اسْتَتْمَمْتُ هذا الخاطرَ حتّى مرَّ بالقرب من البئْرِ رجلان، سمعتُ صوتَ أقدامهما، ثمّ سمعتُ أحدَهما يقول للآخرِ: تعالَ حتّى نسُدَّ رأس هذه البئر الجافّةِ منذ زمنٍ حتّى لا يقع فيها أحدٌ.

فأتيا بقصب وترابٍ وبعضِ الحجارة، وطَمَسَا رأس البئر، فهممتُ أن أصيح وأصرخ أن لا يفعلا، لكنّي قلتُ في نفسي: لماذا أطلبُ العونَ منهما، ولي مَنْ هو أقرب إليَّ من حبل الوريد؟ فسكَتُ وسلَّمْتُ أمري للّه صابراً محتسباً، فبينما أنا على هذه الحالة وقد غادرا ومرّتْ ساعةٌ من النهار، وإذا بشيءٍ أزاح القصبَ والترابَ والحجارةِ عن رأس البئر ففرحتُ ثمّ أدلى برجله إليَّ وكأنّه يقول لي: تعلَّقْ بها. في همهمةٍ له كدْتُ أعرف ذلك منه، فخِفْتُ بدايةً، ثمّ توكّلتُ على اللّه وتعلَّقْتُ به فشَدني وأخرجني ثمّ ولَّى بعيداً، فنظرتُ فإذا هو سَبْعٌ عظيم الهيئة أنقذني ومضى، ثمّ هتف بي هاتفٌ يقولُ: يا أبا حمزة! أليسَ هذا بإحسانٍ ومِنَّةٍ مِنَّا؟ فقد نجّيناك من التَّلَفِ والهلاكِ بالتلفِ والهلاكِ.

فزدتُ في حَمْدِ اللّه تعالى وشكرِه على إحسانه وجودِهِ، وأنشدتُ:

أَهَابكَ أَنْ أُبْدِي إِليكَ الذي أُخْفِي ... وَأَنْتَ عَظِيمٌ مَا يُلاحِظُكَ طَرْفِي

نَهَانِي حيَائِي أَنْ أَكْتُمَ الهَوَى ... فَأَعْنَيْتَنِي بالسرِّ مِنْكَ عَنِ الكَشْفِ

تَلَطَّفْتُ فِي أَمْرِي وَأَبْدَيْتُ شاهِدي ... إلى غايتي وَاللُّطْفُ يُدْرَكُ باللُّطْفِ

تَرَاءَيْتَ لي بالغَيْبِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... تُبَشِّرُني بالغَيْبِ أَنَّكَ فِي الكَشْفِ

أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتي لَكَ وَحْشَةٌ ... فَتُؤْنُسُنِي باللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالعَطْفِ

وَتُحْيي حَيَّاً أَنْتَ فِي اللُّطْفِ حَتْفُهُ ... وَإِذَا عَجَبٌ كَوْنُ الحَيَاةِ مِنَ الحَتْفِ

ثمّ تابعتُ طريقي وأتممتُ حَجِّي شاكراً حامداً للّهِ طول الحياة، عابداً زاهداً.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِ العَابِدِ أَبي حَمْزَةَ الخُرَسَانِي (ت).

وَالحَمْدُ للّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ سِوَاه، والصَّلاّةُ والسَّلامُ عَلَى رسُولِهِ وَمَوْلاَه.

obeikan.com

12 ــ قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ (τ)

أحد العُبَّاد الزهّاد الذين جابوا البلاد، وسكنوا البراري والجبال، ممَّنْ كانت له الأحوال والكاشفات والسياحات. ويُقال أنَّ أصلَهُ من مدينة (قونية) في أرمينيا. وقد قَدِمَ على الشيخ عبد الله اليونيني وعليه برنس الرهبنة فقال له: أسلم يا أرمني. فقبل منه وقال أسلمتُ للّه ربِّ العالمين. وسار سير العابدين المتصوفين المسلمين.

قرأ القرآن الكريم واشتغل بالمعاملات والرياضات الروحية، ثمّ أقام آخر عمره بدمشق ومات بها ودُفن بقاسيون سنة (631 هـ، 1259 م) وكان مولده سنة (550 هـ، 1178 م) في قونيه من أسرةٍ عربيةِ الأصل.

وقيل عنه أنّه اجتاز مرّةً بلدةً فطالبته نفسه بدخولها، وقرّر ألاّ يأكل طعاماً منها، فمرَّ برجلٍ يغسل الثياب، فنظر الغسَّالُ إليه شزراً[1] فخاف منه وخرج من البلدة هارباً، فلحقه ومعه طعامٌ وقال له: كُلْ فقد خرجتَ من البلدة الآن. فاستغرب كيف عرف نيَّتهُ بعدم الأكل وقال له: أنتَ في هذا المقام والحظوة وتغسل الثياب في الأسواق؟ فقال له الغسَّالُ: لا ترفع رأسك ولا تنظر إلى شيءٍ من عملك، وكُنْ عبداً للّه، فإنْ استعملك في أصغر الأعمال، فارْضَ به. ثمّ أنشدَ:

وَلَوْ قِيْلَ لِي مُتْ قُلْتُ سَمْعَاً وَطَاعَةً وَقُلْـتُ لِـدَاعِي المَـوْتِ أَهْـلاً وَمَرْحَبَـا

وذُكِرَ عنه مرّة أنّه ارتحل من بيت المقدس، وكان سورها الذي بناه الملك صلاح الدين قائماً قبل أن يُخرَّبَ، فوقف لأصحابه يودّعهم ونظر إلى السور وقال: كأنّي بالمعاول وهي تعمل في هذا السور عمّا قريب. فقيل له: معاولُ المسلمين أو الفرنج؟

فقال: بل معاول المسلمين. فكان كما قال حيث خَرَّبَ الملكُ المعظم بعد صلاح الدّين السورَ وهدَمَهُ.

---

(1) الشَّزَرُ: نظرةُ الإعراض والغَضَبِ والإستَهانةِ.

obeikan.com

قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ مَعَ المَلِكِ الظَّالِمِ

قيل كان في بلاد الشام مَلِكٌ جائر في حكمه، ظالم لشعبه، كافر بربّه لا يخاف يومَ لقائه، ولا يرجو ثوابه، وكان هذا الملك يأخذ لنفسه أربعة أخماس مال أي شخص يدخل مملكته، حتّى أنّ الناسَ صارت تكره دخول مملكته، وانقطعت عن التوافد عليها، وقد عرض ذات يوم أن مرَّ في أرض هذه المملكة الشيخُ العابدُ السائحُ عَبْدُ اللّهِ الأَرْمَنِـيِّ، فلمَّا رآهُ المتوكِّلون على بابها قد دخل المدينة أمسكوه وفتَّشوه تفتيشاً دقيقاً، رغم أنّه لم يكن يملك شيئاً، لا يحملُ معه حِمْلاً، ولا يرتدي إلاَّ ثوبه الصوفي على جسده، فلمَّا لم يجدوا ما يأخذونه منه مقابل الخُمْس نزعوا عنه ثوبه عن صدره وأبقوا له سرواله، وأخذوا يضربونه بشدّةٍ، فبدأ يصرخ عليهم ويقولُ:

ويحكم أيّها الظالمين، ما لكم ومالي، فأنا رجل سائح مسكين أعبدُ اللّه وما عسى ينفعكم هذا الثوب الذي أخذتموه منّي؟ أعطوني إيَّاه وإلاَّ شكوتكم إلى الملك.

فأجابوه: إنَّما فعلنا هذا بأمر الملك، فافعل ما تريد.

فصار يقول في نفسه: ما أدري أحقٌّ ما يقولونه أم باطل، ولكنني سوف أمضي إلى الملك على كل حال، وأنظر حقيقة هذا الأمر.

فانطلق يستدلُّ قصر الملك، فلمّا وصل أراد أن يدخل فمنعه الحُجَّابُ فشاجرهم فأشبعوه ضرباً، فعاد يفكّر في نفسه ويقول: ليس لي إلاَّ أن أرصدَ الملك حتّى يظهر من قصره فأشكو إليه حالي، وما لاقيتُ من رجاله وظلمهم. فبينما هو على تلك الحالة من الحيرة والتفكير في أمره إذ سمع منادياً يقول: أيّها العسكر تأهَّبوا فالملك سيخرج للصيد.

فاستبشر عبد اللّه بذلك وربط الطريق للملك، فإذا به خرج على فرسه وحوله الغلمان والعبيد والحاشية، فاعترض له ودَعَا له بطول العمر وقال: أيّها الملك... فحاول الغلمان ضربه وإبعاده، فأشار الملك إليهم أن يتركوه يقترب ليعرف حاله، فقال الأرمني للملك بعد أن اقترب منه: أيّها الملكُ أريد أن أشكو لك حالتي.

فقال الملكُ: هاتِ بسرعةٍ ما عندك فإنّي مستعجلٌ للصيد.

فقال: إنّي رجلٌ مسكينٌ سائحٌ في عبادة اللّه تعالى، أطلب ثوابه ورحمته، وكلّما دخلتُ مدينة لاقيتُ من أهلها وملكها الخير والإحسان، فلمّا دخلتُ مدينتكَ وكنتُ أرجو أن ألاقي الخير، عارضني رجالُكَ ونزعوا عني ثوبي بعد أن أشبعوني ضرباً، وعندما حاولتُ الوصول إلى قصرك ضربني حُجّابُكَ، ومنعوني من الدخول إليك، فانظر أيّها الملكُ في أمري وخُذْ بيدي.

فقال الملكُ: وأنتَ مَنْ أشار عليك دخول مدينتي وأنتَ غريب؟

قال: لقد أخطأتُ ولن أكرّرها ثانيةً بإذن اللّهِ، ولكن مرادي منك أن تردَّ لي ثوبي، وإنّي مغادر هذه المدينة وتاركُكَ والمدينة في أمان اللّه، وإلاَّ لحقكَ ومدينتكَ غضبُ اللّه ونقمتهِ.

فلمّا سمع الملكُ هذا الكلام انفعل وغضب وقال بشدّةٍ وتكبّرٍ وتجبُّرٍ: لقد نزعنا عنك ثوبك لكي تَذِلَّ وتخضعَ فما ذلَّيْتَ ولا خضعتَ والآنَ وفي صباح الغد سوف ننزع منك روحك. ثمّ أمر الجنود بوضع العابد في السجن، وتابع هو صيده دون أن يهتمّ بما حدث.

فلمَّا حلَّ العابد في السجن جعل يتندّم أنّه لم يترك ثوبه وينجُ بنفسه من هذا الملك الظالم. وعندما أقبل الليل قام يصلّي ويناجي ربّه ويدعوه قائلاً: يا ربِّيْ أَنتَ أعلمُ بحالي من هذا الظالم، فأسألك وأنا عبدك المظلوم الفقير إلى رحمتك وعفوك أن تنقذني من هذا الظلم، وتحلّ نقمتكَ عليهم، لأن هذا الملك ظالم للمساكين، آكلٌ للحقوق، وأنت لا تحب الظالم المتكبّر والمتجبّر، وأنتَ الحاكم العادل السميع البصير، ولك الحمد دائماً على ما ابتليتني ولتكُنْ مشيئتُكَ. آمين.

وكان السَّجان الذي يحرس العابد يسمع دعاءه وتوسّلاته للّه، فلمَّا نَصُفَ الليل اشتعلت النار في قصر الملك الظالم واحترق هو وأهل بيته، واحترقت المدينة، وثار الناس وخافوا وهربوا، فلمَّا سمع السجّان الخبر علم أنّ ما جرى هو بسبب دعاء العابد، فأطلق سراحه ونجا معه من الحريق، ولم ينجُ من تلك النار إلاَّ المؤمن والصالح وأمّا الظالمون الكافرون فقد احترقوا وماتوا.

وَهَذا بَعْضٌ مِنْ أَخْبَارِ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ الأَرْمَنِيِّ (τ). وَالحَمْدُ للّهِ رب العالمين.

obeikan.com

13 ـ قِصَّةُ الشَّيْخِ عَلِي البَكَّاء (رحمة الله عليْهِ)

هو الشيخُ العابدُ عليّ بن محمد الخليلي، صاحب أحوال ومكاشفات، كان مشهوراً بالصلاح والعبادة، وُلِدَ سنة (600 هـ، 1203م) في بغداد، وذُكِرَ أنّ لقبه البكّاء جاء لكثرة بكائه خوفاً من غضب اللّه وعقابه، وقد كان سبب بكائه بدايةً أنّه صحب رجلاً كانت له كرامات، وخرج معه من بغداد فانتهوا إلى غايتهم في ساعة واحدة، وهذه البلدة كانت تستغرق مسيرة شهور عند الآخرين، كلّ ذلك بقدرة اللّه تعالى، وقد قال له ذلك الرجل أنّه سيموت في الوقت الفلاني والبلد الفلاني وطلب منه أن يبقى معه حينها ليشاهده، فلمَّا كان الوقت حضر عنده وهو في نزعات الموت وقد استدار وجهه نحو الشرق، فحاول البكّاء تحويل وجه الرجل إلى القِبْلَة فعاد الوجه واستدار للشرق، فحوّله ثانية ففتح عينيه وقال له:

لا تتعب نفسك فإنّي لا أموت إلاّ على هذه الحالة، وجعل يتكلّم بكلام الرهبان، فعلم أنه نصراني، فحمله وجاء به إلى دير قريب فوجدهم في حزن كبير، فسألهم عن حزنهم وبكائهم فقالوا له: كان عندنا شيخٌ كبيرٌ ابن مئة سنة يعيش معنا، وهو مسلم ومات على الإسلام.

فقال لهم: وهذا صديقنا مات على النصرانية فخذوا هذا بدَلَهُ، وسلِّمونا صاحبنا، فوافقوا، فأخذوا الشيخ المسلم وغسَّلوه وكفَّنوهُ وصلُّوا عليه ودفنوه مع المسلمين، وكذلك فعل الرهبان بصاحبهم ودفنوه في مقبرة للنصارى.

ومنذ تلك اللحظة والشيخ علي يعبد اللّه ويكثر من البكاء خوفاً من عقاب اللّه وطمعاً بثوابه، وداوم على تلك الحال حتّى لاقى ربَّهُ في شهر رجب من سنة (671 هـ، 1274 م) رحمة اللّه عليه.

وَالحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَالمين، والصَّلاَةُ والسَّلاَمُ على كُلِّ المرْسَلِيْن، مُنْذُ يومِ الخَلْقِ إلى يَوْمِ الدِّيْنِ.

Obeikan.com

14 ـــ قِصَّةُ الشَّيْخِ الحَرَّانِيّ (رحمة اللهِ عليْهِ)

هو الشيخ الزاهد عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصقيل الحرّاني، وُلِدَ في بغداد سنة (594 هـ، 1198 م) وعاش فيها صباه ثمّ انتقل إلى مصر واستوطن بها متعبِّداً زاهداً في الدنيا مُعْرِضاً عن مَتَاعها الزائل، مُقْبلاً على الله بكلّ جوارحه حتّى مَنَّ الله عليه بكرامات، جعلت الناس يتوافدون عليه للاستفادة منه والاستزادة من بركاته ومواعظه.

وروي عنه أنّه شهد جنازة في بغداد، وحضر صلاة الميت ودفنه وكان الميّتُ شاباً أصابته سكتةٌ في القلب، فلمّا حلَّ الليلُ جاء نبّاش للقبور يريد سلب الميت ما عليه من جواهر وحُليٍّ. فلمّا حاول النبّاش فتح القبر، وأخرج الميّت من التابوت نهض ذلك الشاب جالساً فسقط النبّاش ميتاً في القبر، فخرج الشاب ونادى بأعلى صوته، فتجمّع الناس ومعهم الشيخ الحرَّاني وكان شاباً آنذاك فدفنوا النبّاش مكانه وحمدوا اللّه على نجاة هذا الشاب، وبدأ الشيخ الحرّاني يعظُ مَنْ تجمّع حول قدرة اللّه وأنّه لا رادّ لقَضاء اللّه ثمّ عاد الجميع لمنازلهم.

وحكى الحراني يوماً ما جرى معه فقال: كنتُ مرّةً جالساً على صخرة أرتاح من مشوار الطريق، وبيدي خصلة قمح، فجاء زنبور فأخذ سنبلة واحدة ثمّ ذهب بها، ثمّ جاء فأخذ أخرى ثمّ ذهب بها، ثمّ جاء فأخذ أخرى، وقد فعل الشيء هذا أربع مراتٍ، وكانت مدّة ذهابه ومجيئه قصيرة، فأدركتُ أنَّه لا يبتعد بها، فتبعتُهُ في المرّة الرابعة فوجدته يضعُ حبّات القمح في فم عصفورٍ أعمى بين الأشجار، فبكيتُ وحمدتُ اللّه سبحانه المدبِّر أمور خلقه صغيرهم وكبيرهم.

وقال أيضاً: شهدتُ يوماً جنازةً لرجلٍ لم أعرف عنه إن كان صالحاً أم لا، فإذا بعبدٍ أسودَ واقف معنا لم ينبس ببنت شفة، ولمّا صلّى الناس على ذلك الشخص لم

يُصلِّ العبدُ معنا ، فنظرتُ إلى بعض من حولي وقلتُ لهم: أَلمْ تروا ذلك العبد الأسود لم يُصَلِّ معنا وكأنَّه ليس مسلماً؟ فقالوا: عن أي عبدٍ تتحدَّث إنّنا لم نَرَ شيئاً؟ فاستغربتُ لأنّ العبدَ واقفٌ جنبي وقلتُ سبحان اللّه إنّها لمن قدرة اللّه وأحكامه. ثمّ قال لي ذلك العبدُ: أنا أعمال هذا الشخص الميّت وإنّما أنا عبدٌ أسود لأن أعماله سوداء سيئة. ثمّ ألقى بنفسه في القبر، فنظرت إليه بعدها فلم أجده. فقلتُ لمن حولي: سبحان اللّه ليرحمنا اللّه برحمته، ويعفو عنا بمغفرته، وليرحم هذا الميّت قدر حاجته واستحقاقه. واستمرّ الشيخُ الحرّاني بالعبادة والزهد حتّى توفي في مِصْرَ في شهر رجب من سنة (686 هـ، 1288 م) رحمةُ اللّه عليه.

15 ـ قِصَّةُ الشَّيْخِ الوَاسِطِيِّ (رحممة اللهِ عليْهِ)

هو الشيخ أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرح الفاروثي الواسطيّ، وُلِدَ في مدينةِ واسِط بالعراق سنة (614 هـ، 1215 م)، كان دَيِّناً وَرِعاً زَاهِداً، قَدِمَ إلى دمشق زمان الملك الظاهر وكانت له أحوال ومكاشفات كثيرة.

روي عنه أنّه كان يوماً في المسجد يصلّي بالناس إماماً، وعندما هَمَّ أن يكبِّر للإحرام، التفت يمينه وقال: اخرجْ واغتسلْ.

فلم يخرجْ أحدٌ. ثمّ كرَّر ذلك ثانية وثالثة، فلم يخرجْ أحد. فقال الواسطيّ: يا عثمان اخرجْ واغتسلْ. فخرج رجلٌ من الصف واغتسل ثمّ عاد، وتابعَ الإمام الواسطي صلاته بالناس حتى انتهى، وانتظر عثمان حتّى انتهى الشيخُ مواعظه وكلامه، فاقترب منه واعتذر إليه، وكان الرجلُ صالحاً في نفسه غير فاسقٍ ولا منافقٍ، وذكرَ للشيخ الفاروثي أنّه أصابَهُ فيضٌ من غير أن يلمس أو يرى امرأة، فاعتقد أنّه لا يلزمه غسلٌ، وعندما كان الشيخ يخاطبُ للذهاب والاغتسال لم يكن يعلمُ أنّه يخاطبه حتّى ذكر اسمه. وهذا ما أثار إعجاب الناس جميعاً في كيفية معرفة الشيخ الواسطي بعدم جواز صلاة عثمان وهو على تلك الحالة، وكيف عرف بما حصل معه.

وقد كان الشيخ أحمد الفاروثي الواسطي زاهداً متصوّفاً، لبس خرقة التصوّف من الشيخ العابد الكبير السهروردي، وقرأ القرآن الكريم وقد حفظه من تفسيراته، وترك وراءه ألفاً ومئتي مجلَّدٍ في الفقه والحديث والأخبار والمواعظ.

ومات الشيخ الواسطي في بلدة واسط يوم الأربعاء 2 ذي الحجّة من سنة (694 هـ، 1295 م) وكانت جنازته مشهودة حضرها خلقٌ كثيرون وأقيم له بدمشق، صلاة الغائب حضرها كثيرون، رحمةُ اللّه عليه.

والحَمْدُ للّه ذي الإِنعَامِ والإِكرَامِ، وعَلَى رُسُلِهِ السَّلَامَ.

16 ــ قِصَّةُ الشَّيْخِ الأَصْبَهَانِيِّ (رحممة الله عليه)

هو الشيخُ العابدُ العارف باللّه المتصوّف محمد بن غانم بن كريم الأصبهاني، وُلِدَ في أصبهان في بلاد فارس سنة (570 هـ، 1174 م) وقَدِمَ بغداد وكان شاباً فاضلاً، فتتلْمَذَ على يد الشيخ شهاب الدين السهروردي العابد المتصوّف العارف، فانتفع به وتكلّم بعده، وفتح اللّه عليه من نِعَمه وعِلْمه ففاق أهل زمانه في الوعظ والتفسير. كان زاهداً في الدنيا متصوّفاً لا يقبل من أحدٍ عطاءً ولا يرجو من ملكٍ رجاءً، مُسَلِّم أمره للّه، محبٌّ له عارف به، له حقائق ومكاشفات. وفي كلامه لَطَافَةٌ، وفي مواعظه حكمةٌ.

وكان يقول: العلمُ كذَرَّةٍ في فضاء عظمتِهِ، والذرّة كالعالَم في كتاب حكمته، إنَّ الأصولَ فروعٌ إذا تجلَّى جمال أوّليته، والفروعُ أصولٌ إذا طَلَعَتْ شمس آخرتِه. أستارُ الليل مسدولة وشموع الكواكب مشعولة، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة، وحجاب الحجب عن أبواب الوصل معزولة، ما هذه الوقعه والحبيب قد فتح الباب؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب؟ وله هذه الأبيات في الحب والوجد الإلهي، وهي تعبّر عن حالةٍ من حالات وَجْدِهِ وشطحاته الصوفية يقول:

وُقُوفِي بِأَكْنَافِ العَقِيْقِ عُقُوْقٌ ... إِذَا لَمْ أرِدْ وَالدَّمْعُ فِيهِ عَقِيْقُ

وَإِذَا لَمْ أَمُتْ شَوْقَاً إِلى سَاكِنِ الحِمَى ... فَمَا أَنَا فِيْهِ ادَّعَيْتُهُ صَدُوْقُ

أَيَا رَبْعُ لَعَلِّي مَا المَجْنُوْنُ فِي الهَوَى ... سَوَاءٌ وَلا كُلُّ الشَّرَابِ رَحِيْقُ

وَلا كُلُّ مَنْ تلقَاهُ يلقَاكَ قلبُهُ ... وَلا كُلُّ مَنْ يحنو إليكَ مَشُوقُ

تَكاثرتِ الدَّعْوَى عَلى المُحِبِّ فاسْتَوَى ... أَسِيْرُ صَبَابَاتِ الهَوَى وَطَلِيقُ

ومن أقواله أيضاً:

أيّها الآمنون، هل فيكم من يصعد إلى السماء؟ أيّها المحبوسون في مطامير مسمّياتهم هل فيكم سليمٌ في الفَهْم يفهمُ رموز الوحوش والأطيار؟ هل فيكم موسوي الشوق يقول بلسان شوقه: أرني أنظر إليك فقد طال الانتظار؟

وقد أمضى الشيخ الأصبهاني حياته يعظ الناس، ثمّ اعتزلهم وأمضى ليله ونهاره في العبادة والصلاة والزهد إلى أن لاقى ربّه في بغداد سنة (650 هـ، 1250م)، فدُفِنَ فيها وحضر جنازته خَلْقٌ كثيرون بكوا عليه وندبوا صفاته. رحمةُ اللّه عليه.

والحمْدُ لِمَنْ لَهُ الحَمْدُ، الوَاحِدُ الأَحَدُ الفَرْدُ، لا شبيهَ لهُ وَلا ضِدٌّ ولا نِدٌّ.

17 ـــ قِصَّةُ العَابِدِ عَبْدِ اللهِ التَّنُوْخِيِّ (قَدَّس اللهُ سِرَّهُ)

هو الشيخُ الإمامُ، والعابدُ الزاهدُ، والأميرُ السيّدُ الماجِدُ، جمالُ الدينِ والدُّنيا عبدُ الله بن سليمان بن محمد بن جمال الدين حجّي التنوخي[1] عاش يتيماً مع والدته وظهرت عليه دلائل التقوى والورع منذ صغره، وُلِدَ في 12 ربيع الأول من سنة(820هـ، 1417 م) وكان معتدل السمرة والرأس قوي البدن، عذب المنطق، فصيح اللسان، وقوراً ثابتاً، لا يرى بهجة إلاّ لربّه، ولا يبذل مسعاه إلاّ لقربه. درس القرآن الكريم وختمه وحفظه غيباً. كان يرفض الحرام بكلّ أشكاله ولم يقرأ يوماً على ضوء مصباح فيه زيتٌ يشتبه أنّه حرام.

كان كثير الاعتناء بأخبار الأولياء والصالحين والزاهدين أمثال: سفيان الثوري، والفضيل بن عيّاض وعبد الله بن المبارك.. وغيرهم وكانت مكتبته تضمّ (340) مجلّداً في علوم الدين والتاريخ والفقه واللغة والسيرة النبوية والتفسير.

وكان يدعو إلى سبيل الخير، وينهى عن الشهوات والخمور، يسهر الليل في طاعة ربّه وينام ثلثه ويقوم في الثلث الأخير لعبادته.

كان محبًّاً مخلصاً للّه، قانعاً راضياً بقضائه وقدره، غير معترض أو معاند، وقد ظهر ذلك عند وفاة ولده سيف الدين وهو في الثانية والعشرين من عمره حيث خرج للجموع متسلِّحاً بالصبر والقناعة، فوعظ الناس وناداهم بحفظ العقول والصبر.

وقد تجوّل الأمير السّيّد كثيراً في طلب العلم والمعرفة، وأقام في الشاغور اثني عشر عاماً، خالط العلماء والفقهاء والزهّاد، ولُقِّبَ بالسيِّد اعترافاً بسيادته على غيره من أهل زمانه، وكانت وفاته في 17 جمادى الآخر سنة (884 هـ، 1471 م)

---

(1): للاستزادةِ والإفادة حولَ سيرةِ الأَميرِ السيّدِ عبد الله التَّنوخي، راجعْ كتابَنا (كشف الستار)، الباب الثالث، الفصل الثاني، ص (271).

Obeikan.com

وكان لخبر وفاته رجَّةٌ عظيمة وفادحة عميقة ارتعدت له الفرائص وذُهِلَت العقول ودُفِنَ في لبنان في بلدة (اِعبيه) وله قبر يزار حتّى يومنا هذا للتبارك به.

قِصَّةُ التَّنُوْخِيِّ مع إمَامِ الجَامِعِ

رُويَ عن العابدِ الزاهدِ عبد اللّه التنوخي أثناء تواجده في الشاغور أنّه وبينما كان ما يزال مجهولاً من الناس وَمَالَهُ من كراماتٍ وحظوةٍ عند صاحب العزّة والحظوة، وبينما اجتمع المصلّون لأداء صلاة الجمعة، دخل يؤدّي ما عليه من فروض واجتمع في ذلك اليوم خَلْقٌ كثيرون يريدون أداء الصلاة والاستماع للخطبة، فلمَّا صعد إمام المسجد يُلقي خطبته يَعِظُ الناس فيها، ويحثُّهم على العمل والاجتهاد، وصِدْقِ اللِّسانِ والجنانِ، وكان الأمير العابد جالساً مع الناس يستمعُ وينظر مطرقاً نحو الأرضِ، خاضعاً طائعاً للّه، زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، ولمَّا أنهى إمام الجامع حَثَّ الناسِ على انتظام الصفوف، كَبَّرَ بأعلى صوته: (اللّهُ أكبرُ) حينها وقف التنوخي وتابع صلاته وانتظر الشيخَ المؤذّنَ والإمام أن يُسلِّما، ثمّ أقبل نحو إمام الجامع ووسط حشد المصلِّين وقال له: عندما قلتُ اللّه أكبر، صَدَّقتَ بلسانِكَ وكذَّبتَ بقلبِك.

فدُهِشَ الشيخُ من هذا الشاب الذي يخاطبه بهذه اللهجة وأمام الجميع وهو على ما هو عليه من مكانة بين الناس، بينما هذا الشاب التنوخي لا يعرفه أحد حينها، وثار الناس وكثُر الهرج والمرج، فقال التنوخي: لو نطقتها بقلبٍ صادقٍ لاهتزّتِ الجبالُ وارتجَّتِ الأركان، لكنَّك نطقتها بلسانك المنافق لا من قلبك المؤمن. وهنا ثار الرجل وقال غاضباً لمكانته التي اهتزَّت أمام الناس: أنا أكثرُ إيماناً وصِدْقاً منك، ثمّ مَنْ أنتَ لتقاطعني وتحاسبني، وتَدّعي عليَّ ما تدّعي وأنا شيخٌ كبير قضيتُ عمري بالصلاة والعبادة، وأنتَ مازلت شاباً.

فقال التنوخي: أنا عبد للّه خاضعٌ له، مُسَلِّمٌ له أمري، مفوَّضٌ قدري، وهأنذا أمام الجميع أدعوك لإثبات كذبك ونفاقك أو صدقك وإيمانك.

وحينها خاف الشيخُ من افتضاح أمره، لكنه لم يكن أمامه مجالٌ للتراجع أو الانسحاب فذلك سوف يفضَحهُ أمام الناس، ثمّ قال للتنوخي: وكيف ستثبت قولك؟

قال الأمير السيّد: ليُصلِّ كلّ منا صاحبه صلاة الجنازة، وَلْنَرَ ماذا يكون من أمرنا، وصِدْقِ صلاتنا وتكبيراتنا.

قال الشيخُ: لك ذلك ومن سيبدأ؟ قال: إبدأ أنتَ أولاً.

ثمّ تمدّد العابد عبد الله التنوخي على أرض الجامع وتباعد الناس قليلاً وراحوا يراقبون بلهفةٍ ما يحصل، وجَعَلَ إمام الجامع يصلّي صلاة الجنازة وجعل يرفع صوته ويكرّر عباراته حتّى انتهى، فنهض التنوخي وحمد الله وشكرَه، وقال للرجل:

تمدّدْ على الأرض ليرحمْكَ اللّه ويغفر لك ذنوبَكَ وكذبكَ، فتمدّدَ، وجعل الأمير يصلّي الرَّجُلَ صلاةَ الجنازةِ، ولمّا قال: (اللّهُ أكبرُ) اهتزَّت أعمدةُ الجامع وجدرانه، فخاف الناس وشعروا برهبةٍ كبيرةٍ، ولمَّا وَصَلَ بقوله إلى: (معكم جنازة رَجُلٍ مُسْلِمٍ متوفًّى...) ارتعش الرجلُ الممدَّدُ واضطرب ثمّ هَدَأ بعدها. ولمَّا أنهى صلاتَه حَمَدَ ربَّه وشكرَه، ودَعَا للرجل بالرحمة والمغفرة، وقال للناس: قوموا إلى صاحبكم اغسلوه وكفّنوه ثمّ ادفنوه، فقد أنهيتُ صلاتَهُ.

فاقترب بعضُهم منه وحرَّكُوه فإذا هو جثّة هامدة، فخافوا وتعجّبوا ممّا حصل أمَامهم. فقال لهم التنوخي: اللّه يعلم ما في صدور الناس وما في قلوبهم، فاصْدِقُوا الإيمان، واملؤوا بالتقوى الجِنَان، واعبدوا اللّه في السرِّ والعَلاَن، وإيّاكم والنفاق والبهتان، واجعلوا حب اللّه زادكم وعبادته حالكم، وتقواه دربكم في كلّ مكان وزمان.

فقام الجمعُ وجهَّزوا الرجلَ ودعوا له بالمغفرة، ودفنوه، ثمّ عادوا للسيد العابد التنوخي يسألون خاطره، ويطلبون منه الموعظة والنصح.

وعاش بينهم فترة من الزمن يرشدهم ويحكم بالحق بينهم ويحلّ خلافاتهم، وكانت كلمتُه مستجابةً بينهم، ودعوتُه عند خالقه مقبولةً مستجابة. ثمّ غادر الشاغور إلى لبنان وبقي فيها عابداً زاهداً صابراً محتسِباً حتّى وافته المنيَّة سنة (884 هـ، 1532م)، عليه رحمة اللّه ورضوانه.

وَالحَمْدُ للّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، مَالِكِ المُلْكِ ومُدبِّرِ شؤُوْنِ الخَلْق.

18 ـــ قِصَّةُ الشَّيْخِ الفَاضِلِ (قَدَّس اللهُ سِرَّهُ)

هـو العابدُ الزاهدُ، محمد الكوكباني، وُلِدَ في قرية الشعيرة في وادي التيم سنة (987 هـ، 1567 م)، عاش حياته يتيماً في بلدة كوكبة حيث نُسِبَ إليها، عمل برعي الماعز ليفي ضرورات الحياة وكان شغوْفاً بالعلم منذ صغره، واستطاع أن يتّصلَ في تلك الفترة بالشيخ العابد محمد أبي عُبادة، فعمل عنده في زراعة الأرض وتربية القزّ. وقد برَع في علوم الدين وذاعَ صيتُه رغم حداثة سنِّه[1].

اشتهر بتقواه وأصبحَ مقصداً لكلّ طالب علمٍ وفقهٍ ودِيْنٍ، وكانت حياتُه غايةً في الزهد والتقشّف والترفّع عن مغريات الحياة لذلك اكتفى بخبز الشعير غذاءً له وكان يقول: إنّ تعلّقَ الإنسان بالدنيا هو من الفضول.

كان لباسه من خشن الثياب ذات اللون الأزرق، وقد أمضى كثيراً من حياته منعزلاً عن الناس في جبل وادي التيم الذي سمّي باسمه فيما بعد (جبل الشيخ)، متعبداً ليله ونهاره متهجداً بصوتٍ منكسرٍ حزين، قد ألحّ عليه الناس كثيراً ليتواجد بينهم لتوجيه الوعظ والإرشاد، فخصَّهم بشهور الصيف حيث يفسّر لهم آيات اللّه سبحانه وحكمته واستمر الشيخ الفاضل على حاله من العبادة والزهد والتقوى حتّى ضعف بدنه من الجوع الذي كان يُلْزِم به نفسه والسهر والعبادة، فمرض مرضاً شديداً حتّى لاقى ربَّه في ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر شعبان من عام (1050 هـ، 1630 م) ودُفن في عين عطا في لبنان وأقام الناسُ فوق قبره ضريحاً يُزار حتّى يومنا هذا.

---

(1) للاستزادة حول حياة الشيخ الفاضل وأقواله راجع كتابنا (كشف الستار) الباب الثالث . الفصل الثالث. ص (289).

قِصَّةُ الشَّيْخِ الفَاضِلِ مَعَ وَحْشِ الجَبَلِ

رُويَ عن الشيخ الفاضل (τ) أنَّه كان قد اعتزلَ الناسَ في الجبل في مغارة يقضي طوال أشهر السنة فيها متعبّداً، وحَدَثَ في أيّام الشتاء أن سقط ثلج كثير على ذلك الجبل، ولم تجد الحيوانات البريَّةُ والوحوشُ ما تأكله، فخرج وحش كاسر يبحث عن فريسةٍ يأكلها، فلم يجدْ شيئاً طوال أيّام كثيرة، فعانى من الجوع كثيراً وازدادت شراسته، وحدث أن اقترب الوحشُ من المغارة التي يتعبّد فيها الشيخُ الفاضلُ فاشتمَّ رائحة بَشَرٍ، فاقترب بسرعةٍ يريد أن ينقضَّ على مصدر الصوت، وكان الشيخُ يصلّي يتهجَّد بصوته المنكسِر الحزين، وكان يتلو كثيراً من آهاته الحزينة التي تحملُ التذلل للخالق والانكسار أمامه والخضوع والسجود، فوقف الوحشُ وجلسَ يستمع، وكان الشيخ يقول: «**آهٍ من ثقلِ الأوزارِ، آهٍ من قلّةِ الاستشعارِ، آهٍ من غَضَبِ الجَبَّارِ، آهٍ من المَتَابِ، آهٍ من ذَهَابِ الشَّبَابِ، آهٍ من يومِ الحسابِ، آهٍ من عُظْمِ الخَطَا، آهٍ من الزللِ، آهٍ من خيبة الأملِ، آهٍ من قلبي ما أقساه، آهٍ من عملي ما أرداه، آهٍ من ربِّي كيف ألقاه، آهٍ من عَهْدِي كيف أنساه، آهٍ من عُظْمِ الصَّيْحَاتِ، آهٍ من عملٍ قد فات، آهٍ من بُعْدِ الطَّريق، آهٍ من سَبْقِ الرفيق، آهٍ من عدم التصديق، آهٍ من ضعف اليقين، آهٍ من قلبٍ حزين......** »

فلمَّا انتهى الشيخ من تأوّهاته، ودموعه غطّت وجهه ولحيته كان الوحشُ قد رقَّ قلبه، فتحاملَ على جوعه وأدار ظهره يريد العودة من حيث جاء، فناداه الشيخُ الفاضل: تعالَ يا صاحبي، مثلك أنا، أنتَ تبحث عن طعام تسدُّ به رمقك، وأنا أبحث عن خلاصي لأختم به حياتي. ثمّ قدّم له كسراتٍ من الخبز بلّلها بالماء فتقدّمَ الوحشُ فأكلها مطمئناً جالساً بين يدي الشيخ ثمّ غادره، وقد تعوّد أن يزورَ الشيخَ بشكل دائم فازدادت بينهما الألفة حتّى لاقى الشيخ ربّه، رحمةُ اللّهِ عليه. وقيل أنّ هذا الوحش كان كاسراً خطيراً يهاجم كل من يصادفه ويفترسه، وقد قتل كثيرين ممن صعدوا الجبل، ولكنّه منذ أن التقى بالشيخ الفاضل صار أليفاً لا يهاجم أحداً. واللّه أعلم.

والحَمْدُ للّهِ ربِّ العَالَمين.

19 ــ بَعْضُ قِصَصِ العُبَّادِ المَجْهُوْلِيْنَ (ψ)

1 ـ قِصَّـةُ الشيـخ أبي مَدْيَن مَعْ رُهْبَانِ الدَّيْرِ.

روي أنه في بلاد الأندلس كان الشيخ أبو مدين ذا مكانةٍ كبيرةٍ بين الناس، فكان يتكلّم بينهم ويَعِظهم بالحكمة وجوهر الكتاب الشريف، فكان يجلس بعد الفجر في مسجد الخضر في إحدى مدن الأندلس في مدينة قرطبة حيث يتحلق حول مجلسه الكثير من الخلق بعد أداء الفريضة، يستمعون لما ينطق به من حكم ومواعظ تليّن الصخر،وتبعد الكفر عن قلب المرء.

فسمع به رهبان من دير يعرف بـ(دَيْر الملك)،وكانوا سبعين نفراً فقالوا فيما بينهم: لنختر منا عشرة يذهبون حيث يُلْقي الشيخ أبو مدين مواعظه،لنرى مدى إيمانه وما يقال عنه من كرامات وحظوة عند الله.فجاء من أكابرهم عشرة رهبان وتنكروا في زيّ المسلمين ودخلوا المسجد مع الناس ولم يشعر بهم أحد،فلما أراد الشيخ أبو مدين البدء بكلامه وحديثه سكتَ ولم يتابعْ، فاستغربَ الجميعُ المنتظرون سكوته، ثمّ دخلَ خيّاط، فقال له الشيخُ: ما الذي أبطأك عنّا؟

فقال الخيّاط: حتّى انتهيتُ من صنع الطواقي العشر التي أوصيتني بها البارحة وتقدّم الخياطُ ووضعها بين يدي الشيخ وعاد وجلس بين الجميع، فقام الشيخُ وحمل الطواقي بين يديه ومشى بين الحضور وصار يضع على رأس كلّ راهبٍ طاقيةً حتّى ألبسَ العشرةَ، فتعجَّبَ الناسُ من هذا التصرّف، ولم يعلموا السبب.

ثمّ عاد الشيخ لمجلسه وشرع بكلامه، بينما الرهبانُ ساهمون متعجّبون، لا يصدّقون ما حدث، وكان من جُمْلَةِ كلام الشيخ:

يا فقراءُ! إذا هَبَّت نسيماتُ التوفيق من جناب الحقّ على القلوبِ المُشْرِقَةِ أطفأتْ كلّ نور.

ثمّ تنفّس الشيخ فانطفأت قناديلُ المسجد، وكان عددها ثلاثين قنديلاً ونيّفاً. ثمّ سكتَ الشيخُ وأطرق نحو الأرض، فصمت الجميعُ ولم يتحرك أحدٌ لعظم هيبة الموقف، ثمّ رفع رأسه وقال: لا إله إلاّ اللّه، يا فقراءُ! إذا أشرقت أنوارُ العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاءت كل ظلمةٍ. ثمّ تنفّس الشيخ فاشتعلت قناديل المسجد، وعاد إليها نورها وإشعاعها، وتزايدت شعلاتها واضطربت حتّى كادت تلامس بعضها. وبدأ الشيخُ يفسّر للناس معاني آية السجدة فسجد الناسُ جميعاً، وسجد معهم الرهبان خشيةَ الفضيحة وانكشافِ أمرهم خاصّة بعد أن وضع على رؤوسهم الطواقي وظنَّ الناس بأمرهم الظنون. فقال الشيخ في سجوده: اللهمَّ إنّك أعلمُ بتدبير خلقك ومصالح عبادك، وإنّ هؤلاء الرهبان وافقوا المسلمين في لباسهم وسجودهم لك، وأنا غيّرتُ ظواهرهم، ولا يقدر على تغيير بواطنهم غيرك، قد أجلستَهُم على مائدة كرمك، فأنقذهم من الشكّ والكفر إلى نور الإيمان.

فما أن انتهى الشيخُ من صلاته وسجوده، ورفع الناس رؤوسهم من السجود، حتّى ذهب عن الرهبان الهجران والشك والصدود ودخلوا في دين الملك الواحد المعبود. فقاموا وأتوا الشيخ وتابوا على يديه واعترفوا بما كان من تدبيرهم وبكوا ثمّ أسلموا ونطقوا الشهادتين، فكثر الهرج والمرج بين الناس من قدرة اللّه تعالى وبما خصَّ أولياءه من الكرامات والعطايا، وكان ذلك اليوم مشهوداً من أيّام قرطبة سمع به الخَلْقُ وصدَّقه المصدقون، وأمّا الضّالون الكاذبون فكذّبوا وأبوا التصديق، واللّه وحده القادر على هدي عباده إلى الطريق.

والحمد للّه الولي الرفيق، وصلّى اللّه على رسوله، وآله النجوم الزهر ذوات البريق.

Oberikan.com

2 ـ قِصَّةُ العَابِدَةِ صَفْوَانِيّة مَعَ المَلِكِ المُعَانِدِ

رُوِي عن جاريةٍ كانت تعبدُ الله الواحد القهّار، ولا تفترُ عن ذكره ليلاً أو نهاراً، وكان اسمها صفوانية ذاتُ عفّةٍ وطهارةٍ ونفسٍ نقيَّة، وصِدْق نِيَّة، تواظبُ على العبادة ولا تبيع آخرتها بدنياها. فغضب سيّدها من كثرة عبادتها وتوسّلها لله تعالى، ولم يكن مؤمناً صَادِقاً، ولا رجلاً صالحاً، فأَذِنَ في بيعها، وأعطاها للدلاّل وقال له: خُذْها وبِعْها، ونادِ عليها بكل العيوب.

فأخذها الدلاّلُ إلى مدينة أحد الملوك المعاندين الظالمين الموسومين بالكفر والمعاندةِ والجبروتِ، وصَارَ الدلاَّلُ ينادي عليها بكلِّ العيوبِ، وصَادَفَ أنَّ موكبَ الملك مَرَّ في السوق، والملكُ جالسٌ على كرسيِّه بجبروته وكبريائه فصادف الدلاّل الجارية، فأعجبه منظرها وأراد شراءها فقال للدلاّل: بكم هذه الجارية؟

فقال: هي بعشرين دينار. فأمر الملكُ حاجبَه أن يعطي الدلاّل المالَ.

ثمّ قال للجارية: وما تعرفين من الصناعة؟

فقالت: صناعتي البيت كلّهُ.

فأمر الملكُ بدخولها بيت الحريم فدخلَتْ وصارتْ تخدمُ في البيت، ولسانُها لا يفترُ عن ذِكْرِ الله ليلاً ونهاراً، حتّى تعلَّقَ بها أهلُ الملكِ وأولادُه وعبيده وجواريه ودَعَتْهُم للإيمان بالله تعالى فوافقوا، فصاروا يعبدونه معها ويقولون مثلما تقول.

ثمّ حَدَثَ ذات يومٍ أن أخبر أحدُ الغِلْمَان الملكَ بالخبر، فأرسلَ الملكُ وراءها وقال لها: يا صفوانية! فقالت: نعم يا سيّدي الصغير. فقال لها متعجّباً: وهل لكِ سيِّدٌ كبيرٌ؟ فقالت: نعم. سيِّدي الكبير هو الله الواحد القهّار الذي هو خلقني وخلق السموات والأرض وما بينهما في ستّة أيام، وهو على كل شيءٍ قدير.

فغضب الملكُ منها ولم يشأ أن يظهره هذا الكلام بالضعف فقال: سنرى من مِنَّا السيّد الصغير ومن السيِّد الكبير، وسنرى كيف يحميكِ سيّدُكِ الكبيرُ.

وأضمر في نفسه شيئاً، ثمّ نادى على أحد الغلمان وقال له: أَحْضِرْ كيساً فيه ألف دينار. ففعل الغلامُ وأعطاه للملك، الذي قام بدوره بخَتْم الكيس وقال للجارية: يا صفوانية! خُذي هذا الكيس واحتفظي به وحاذري عليه من الضياع.

فأخذتْهُ واحتفظَتْ به في حجرتها، ثمّ مضَتْ أيّام قلائل، فأمر الملكُ غلاماً أن يدخلَ غرفة الجارية ويحضرَ الكيسَ الذي فيه الدنانير دون أن يعلمَ به أحدٌ، فدخلَ الغلامُ وأحضرَ الكيس، فطلب منه الملكُ أن يسيرَ بالكيسِ إلى البحر ويعطيه لصاحبِ المركب ويطلبَ منه أن يسيرَ بعيداً عن المدينة، ثمّ يذري الدنانير في البحر ويثقب الكيسَ ويرميه. ففعلَ الغلامُ ما أمره به الملك. وقال الملكُ في نفسه: إن كان لهذه الجارية إلهٌ عظيمٌ يقدر على جمع الدنانير كما كانوا، فإنّي سأؤمنُ به، وإلاّ فإني سأقتلها وأقطعها إرْباً.

وطلبَ الملكُ من الغلامُ أن يأتيه بعد أن أخذ الكيس وأعطاه لصاحب السفينة، فلمَّا أتاه قتله بعد أن تأكَّدَ أن أحداً لم يعرف بما جرى ولم يَدْرِ بقصّةِ الكيس.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه أمرَ الملائكة الموكّلين بالبحر أن يجمعوا الدنانير كما كانوا، ثمّ مرَّتْ سمكةٌ كبيرةٌ فابتلعت الكيس، ثمّ قدَّرَ اللّه تعالى أن جاء صيادٌ وطرحَ شبكته في البحر، فعلقت السمكةُ، وعندما رامَ الصيادُ رفعها لم يقدر على ذلك، فالتفت وراءه فرأى شيخاً بَهِيَ الصُّورة فقال له: أعِنِّي على سحب هذه الشبكة ولك نصف ما فيها.

فأعانه على سحبها، فطلعت السمكةُ في الشبكة، فأخذها الشيخُ للمدينة وباعها، فاشتراها الطبَّاخُ في قصر الملك وأعطاها للجارية صفوانية كي تنظف السمكة، فأخذتها وغسلَتْها وشقَّتها فوجدت الكيس في بطنها فعرفته وأخذته ووضعته في مكانه حيث وجدت الدنانير بمكانها، فحمدت اللّهَ وتابعَتْ عملها، ثمّ مضتْ أيَّامٌ قلائل، فاستدعاها الملكُ وقال لها: يا صفوانية! آتيني بالكيس المملوء بالدنانير.

فقالت: بسم اللّه. ودخلَتْ وأحضرت الكيس وناولَتْهُ إيّاه، وعندما تأكَّد من الختم وأنّ الكيسَ هو نفسه الذي رماه في البحر، خرَّ مغشيّاً عليه، فلمَّا أفاق من غشوتهِ تكبَّر وتجبَّر ورفض أن يعبد اللّهَ، وزادَ في غيِّهِ إذ أمرَ بتجويع السِّبَاع

Obeikan.com

وتعطيشهم لثلاثة أيام، ثمّ أمر بإدخال الجارية عليها وأغلق الباب، وقال: إن أكلتها السباعُ نكون قد ارتحنا منها ومن كلامها ، وإن نَجَتْ يكون إلها عظيماً قادراً على حمايتها فنؤمن به، فلمَّا دخلت بين السباع، هاجت لجوعها وكادت تأكلها، لكن صفوانية قالت تدعو ربها: إلهي، يا عظيمَ العظماء، يا باسطَ الأرضِ ورافع السماء، أسألك أن تخلصني من هذه السباع إن كان لي في العمر بقية، وإن لم يكن أرجو أن تعجل موتي قبل أن تأكلني هذه السباع الجائعة المسكينة، وجلست وهي تذكر اللّه سبحانه ولا يفتر لسانها عن تسبيحه وذكره، وبقدرة اللّه تعالى استأنست بها السباع وصبرت على جوعها، وبعد أيام ثلاثة أمر الملك بفتح الباب لإخراج السباع وما تبقى من الجارية، ولما رآها جالسة بينهم ورؤوسهم على ركابها، صرخ ووقع مغشياً عليه، وبعد أن أفاق من غشوته رفض أن يؤمن وتجبّر وتكبّر، فأمر بجلب حطب كثير، فأُحضر ثمّ قال لصفوانية: بحق سيدك الكبير الذي تعبدينه وتعتقدينه خالقك وخالق السموات والأرض وتعتمدين عليه في كل أمر، أوقدي التنور وضعي كل الحطب فيه.

فقالت: السمع والطاعة لسيّدي الصغير.

فأوقدت التنور ووضعت الحطب فيه فزاد اشتعاله وأججت ناره. ثم أمر بإلقائها في التنور، فقالت إلهي أنت تعلم حالي، وما أنا فيه وإن نفسي لا تألف النار إلا بمحبتك، عليك توكلت وبك استعنت وبحبلك اعتصمت، فلتكن مشيئتك. ثمّ رمي بها في التنور وغطي عليها لثلاثة أيام وهي جالسة تذكر اللّه الواحد القهار، والنار نابتة من حولها وروداً وأزهاراً، وبعد ثلاثة أيام جاء الملكُ وكثيرٌ من حاشيته ليرى ما فعلته النار بالجارية، فأمر بفتح الغطاء، ففُتح فوجدَ الجارية راكعةً ساجدةً فغشي عليه وصاح الجميعُ مدهوشين مؤمنين بقدرة اللّه تعالى، فلمَّا أفاق من غشوته آمن باللّه إيماناً صادقاً، وحَثَّ جميع شعبه على الإيمان. وكان لهذه العابدة المؤمنة اليد الكبرى في دخولهم في دين اللّه، ثمّ عاشت هذه العابدة بينهم مدّةً تعبدُ اللّه حتّى وافتها المنية، رحمةُ اللّه عليها.

والحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَرْشِ العَظِيْمِ، والخَيْرِ العميم الرحمَنِ الرحيمِ

3 ـ قِصَّةُ المَلِكِ الجَاحِدِ وَتَوْبَتِهِ.

قيل أنَّه كان مَلِكٌ من المترفين وأربابِ النِّعَمِ الجِسَامِ، ليس له بغية في حياته إلاّ التلذّذ بالمأكولات والمشروبات والمنامِ، فكان لا يأكلُ إلاّ ألذّ المأكولات، ولا يلبسُ إلاَّ أفخر الثياب المذهَّبة، ولا يسكن إلاَّ في أروع القصور وأفسحها وأبهاها منظراً، حتّى أنَّهُ أمر بصنع سرير له من الذهب والفضة، وَرُصِّعَ بالدُّرِّ والجواهرِ، وزاد في استغراقه في ملذّات الحياة تكبُّراً وتجبُّراً أن جعل سريره الذهبي معلقاً بين الأرض والسماء كي يبقى مرتفعاً بين الناس وفوقهم، فيخاطبونه ورؤوسهم للأعلى ناظرة.

وحدث ذات ليلةٍ وبينما كان نائماً أنَّه رأى حُلْماً مهولاً أفزعه فوقع عن سريره مغشياً عليه فبادر إليه الغلمان والخدم والعبيد، ورفعوه إلى سريره حتّى أفاقَ من غشوته، وسألوه عمّا حصل له فقال: آتوني بالمفسّرين والمنجِّمين، وإلاَّ هلكتُ لا محالة. فلمَّا أتوه بالمفسّرين، سألوه عمّا رآه في منامه وأفزعه بهذا الشكل فقال:

(**رأيتُ في المنام أنّي في بريَّةٍ قفراء لا نَبْتَ فيها ولا ماء، ولا حِسّ في هذه الفلاة أو إِنْس، وقد رأيتُ فجأة شخصين من بعيد يقتربان مني والنار المحرقة تخرجُ من أفواههما، وأنا أهربُ قدّامهما في مَسْلَكٍ ضيِّقٍ طويل لا أستطيعُ الخروج منه أو قطعَهُ، وكان شعري طويلاً بشكلٍ كبيرٍ جدّاً واسودَّ وجهي سواداً عظيماً، وكان على ظهري ثِقَلٌ كبيرٌ يكاد يكسرُ ظهري، ورأيتُ نفسي عرياناً من الثياب وبدني ملطَّخٌ برجيع جوفي**) هذا ما رأيتُه وأفزعني وأقلق مضجعي، فما هو تفسيرُ ما رأيتُ؟

فقال بعضهم: هذه الرؤية ما هي إلاَّ أضغاث أحلام ليس لها معنى أو تفسير، ومنهم من قال: إنَّها من قِبَل النجوم والأفلاك، ومنهم من قال: إنَّها بسبب الإكثار من الطعام والخلط بين أنواعه الكثيرة ومنهم من قال: إنّها من الجنّ المواكيل بالإنسان لإقلاقِ راحته. ولم يُعْطِ المفسّرون للملك أي تفسير يريحه أو يخفّف من فزعه وخوفه. وبقي الملك مدّةً طويلةً على هذه الحال يرى المنام كلّ ليلةٍ ويقع مغشياً

obeikan.com

عليه وينهضُ فَزِعَاً خائفاً، حتّى ضَعُفَ جسمُهُ وساءت أحواله وامتنع عن الأكل وكاد يهلك وصار كل من كان يحسده على عيشه يحزن عليه. ثمّ صادف أن مرَّ في المدينة نفرٌ من جماعة هذا الملك فوجدوا شيخاً حكيماً وقد تحلَّقَ الناس حوله، وهو يفسّر لهم أحلامهم ويرشدهم ويعظهم، فاقتربوا منه وقالوا له:

السلام عليك أيُّها الشيخُ الحكيم.

فردَّ عليهم السلامَ وسألهم عن حاجتهم، فقالوا له: هل سمعت خَبَر المَلكِ وما أصابه من ذاك الحُلْم المخيف الذي يراه؟

فقال: نعم، وأعرف تفسير المنام الذي يراوده.

فقالوا متشوّقين: ولم لا تذهب إليه وتفسّره له علّهُ يرتاحُ؟

فقال: لأنّي أعلمُ أنّ هذا الملك سيكون أزْهَدَ أهل زمانه وأكثرهم عِلْمَاً وحُبّاً باللّه والنّاسِ.

فقالوا: أيّها الحكيم! عرِّفْنَا تفسير منامه حتّى نوردَهُ عليه علَّهُ يتَّعظُ بقولكَ ويشفى من حالته السيئةِ.

فقال: أخبروه أنَّ البرّيَّة القفراء هي نار جهنَّم، والشخصين هما منكر ونكير، والمَسْلكَ الضيِّق هو الصراط المستقيم، وأمّا سواد وجهه فهو سواد وجهه يوم القيامة بين يدي اللّه تعالى، وأمّا طول شعره، فهو طُولُ حَسْرَتهِ وندامتِهِ، وأمّا عُرْيه من الثياب، فهو عُرْيه من الحَسَنَاتِ، وأمّا الثقل الذي على ظهره فهو ثِقَلُ أوزاره وذنوبه، وأمّا كونه ملطّخ برجيع جوفه فهو أنّه يوم القيامة يتمنَّى الرجوع إلى الدنيا حتّى يعمل صالحاً فلا يقدر أن يُرَدَّ إلى الدنيا كما أنّه لا يقدر رَدَّ الذي في جوفه إلى ما كان فيه. فقالوا: وبِمَ يزول عنه ذلك الذي ذكرتَ؟

فقال: بنزع ما كان عليه من الخزِّ والديباج، ولِبْسِ جُبَّةٍ من الصوف والتنزّه عن الأموال والأملاك. وكلّما اجتهدَ في الطّاعات وَفِعْلِ الخيرات، وكلّما ابتعد عن اللذّات والشهوات والزينات، وزادَ استشعاره للّه تعالى في كل الأوقات ومراقبة جبّار الأرض والسموات وتقواه وحبّه حتّى الممات، زال عنه كل ذلك الذي هو فيه.

قيل: فعاد القوم مُسْرِعين إلى ملكهم وأخبروه بخبر الحكيم وكلامه وتفسير المنام. فاتَّعَظَ الملكُ بقول الحكيم لعظيم ما أصابه، وفعل كما أمره الحكيم وزاد على ذلك، فما مضت مدّة يسيرة من الزمن حتّى تحسَّنَتْ صحته، ورأى في المنام أنّه في ذلك المكان نفسه، وقد اخضرّت البريَّة وأزهرت، وصار فيها أنهارٌ جارية وقصورٌ عامرة وأشجارٌ مثمرة وأن في ذلك المكان شخصان كأنّهما قطعة من نور، وهما يكلِّمانه ويشيران إليه، فقال لهما: ما اسم هذا المكان.

فقالا: هذه الجنّة.

فقال: ليت شعري هل لي نصيبٌ هنا؟

قالا: نعم.

فقال لهما: وبأيّ شيء استحقّيتُ أنا ذلك؟

قالا: إن دُمْتَ على ما أنت فيه من الطاعة والعبادة.

فَداوَمَ المَلِكُ على هذه الحالة من التقشّف والتعبّد مدّةً طويلةً مواظباً مجتهداً فصار عالماً كبيراً وزاهداً وَرِعَاً يتوافد الناس عليه يستمعون كلامه.

والحمدُ للّه الذي لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم ملك المُلْك ورَبّ العرش العظيم.

Obeikan.com

4 ـ قِصَّةُ الرَّجُلِ العَابِدِ وَاليَاقوتةِ الإِلَهِيَّةِ.

قيل كان في بلاد فارس رجلٌ قد اجتهد في عبادة ربّه، وزَهَدَ في دنياه وكانت له زوجةٌ صالحةٌ تساعده على شؤون الحياة والعبادة، وكانا يعيشان من عمل الأطباق والمراوح، حيث يعملان بالنهار، فإذا جاءت عشيَّةُ النهار سار الرجلُ بما يمكنه حَمْلُه من عملهما، ومشى في الأزقّة والطرق يلتمسُ مشترياً يبيعُ له ما صنعاه، فمرَّ بباب أحد أبناء الدنيا وأهل الرفاهية والجاه، فرأتْهُ امرأةُ صاحبِ الدَّار، وكان الرجلُ العابدُ مشرقَ الوَجْهِ جميلَ الصورةِ، بهيَّ الطلعةِ، فلمَّا رأتْهُ تعشّقت به، ومال قلبُها إليه ميلاً شديداً، وكان زوجها غائباً عن المنزل، فدعَتْ خادمةً لها وقالت: لَعَلَّكِ تحتالين في دخول هذا الرجل إليّ، فإنّي قد مِلْتُ إليه بكلّيتي. فخرجت الخادمةُ إليه ودَعَتْهُ لأن تشتري منه ما يحمل بيده من أطباقٍ ومراوح، وقالت له: ادخل واقعد في هذا الصِّوَان[1] فإنّ سيدتي تريد أن تشتري منكَ. فلمَّا صار داخل البيت أغلقتِ الأبوابَ، فخرجت سيّدتها إليه وجذبته من تلابيبه[2] وحاولت أَنْ تشدَّهُ إلى غرفتها وقالت له: كم لي وأنا أطلبُ خُلْوةً منك وقد عِيْلَ[3] صبري من أجلك، وكم طلبنَي من الملوك والأمراء فلم ألوي على أحدٍ.

كانت المرأة تقول هذا الكلام والرجلُ العابد لا يرفع رأسه حياءً من الله عزّ وجلّ وخوفاً من عقابه، ثمّ فكّر في طريقةٍ يفلتُ نفسه بها من الوقوع في المعصية والإثم، فقال لها: أريدُ أن أطلبَ منكِ شيئاً.

فقالت متلهّفةً: اطلبْ أي شيء تريد.

---

(1) الصِّوان: القاعة أو الصّالة المغلقة الجدران .

(2) التلابيب : مفردها تلبيب ويعني قبةُ الثوبِ وطاقتُهُ .

(3) عِيْلَ الصّبْرُ : نَفَدَ وانتهى .

قال: أريدُ ماءً طهوراً وأصعد به إلى أعلى موضع في دارك أقضي به أمراً، وأغسل دَرَناً[1] ما لا يمكنني إخبارك به.

فقالت: إنّ الدار واسعة، ولها خبايا وزوايا، وبيت المَطْهَرة مُعَدٌّ.

قال: إنّما غرضي الارتفاع والعلو.

فصعَدتْ به إلى أعلى موضع في الدار، ودفعتْ إليه بآنية فيها ماء وتركتْهُ ونزلَتْ. فقام الرجل وتوضَّأَ، وصَلَّى ركعتين كاملة السجود والركعات، ثمّ صعد سطح المَنْظرة[2] في المنزل، ونظر إلى الأرضِ فرآها بعيدةً فخاف أن لا يصلَ الأرضَ إلاّ وقد تمزّقت أشلاؤه، وتفكَّر في معصية اللّه تعالى وعذابه، فهان عليه بَذْلُ نفسِهِ، فقال مناجياً ربَّهُ:

إلهي وسيدي، أنت ترى ما نَزَلَ بي ولا يخفى عليك حالي، وَمَا بَذلي لنفسي معصيةٌ لأوامركَ وإنّما سبيل نيلِ رِضاكَ، وأنتَ على نجاتي وخلاصي قدير، ثمّ أنشد:

أَشَارَ القَلْبُ نَحْوَكَ وَالضَّمِيْرُ ... وَسِرُّ القَلْبِ أَنْتَ بِهِ خَبِيْرُ

وَبَذْلُ النَّفْسِ أَصْعَبُ مَا يُلاَقى ... فَإِنْ تَرْضَى بِهِ فهُوَ اليَسِيْرُ

وَإِنْ تُنْجِنِي وَتَمْنَحْنِي خَلاَصِي ... فَأَنْتَ عَلَيْهِ يَا أَمَلِي قَدِيْرُ

ثمّ رَمَى بنفسهِ من أعلى المنظرة، فأرسلَ اللّهُ سبحانه وتعالى مَلَكاً تلقَّفَهُ على جناحهِ وأنزلَهُ إلى الأرضِ سالماً، فحمدَ اللّه تعالى على نجاتِهِ، وسارَ إلى زوجتِهِ وكان قد أبطَأَ عنها، فسألَتْهُ عمَّا أخَّرَهُ وكيف رجع وما معه شيء من البضاعة، فأخبرها بما عَرَضَ له من الفِتْنَةِ وكيفَ رَمَى بنفسِهِ وأنجاه اللّه من المعصيةِ والموتِ معاً.

---

(1) الدَّرَنُ: الوَسَخ أو ما يَعْلَقُ بالثوبِ وَغيرِهِ مِنْ الأوْسَاخِ.

(2) المَنْظَرَةَ: أعلى نُقْطَةٍ في المَنْزِلِ تُشْرِفُ وتُطِلُّ على الأرضِ.

فقالت: الحمدُ للّهِ الذي صَرَفَ عنكَ المحنةَ، وأزالَ عنكَ الفِتْنَةَ. لكِنَّ الجيرانَ قد تعوّدوا مِنَّا أن نُضْرِمَ النّار كلّ يومٍ، فإن رأونا الليلةَ دون نارٍ علموا أنّنا دون شيء، وإنَّ من شُكْرِ اللّه تعالى كَتْمُ ما نحنُ فيه، ومتابعةُ صَوْمِ هذه الليلة وقيامها. ثمّ عمدتْ إلى التنور وملأتهُ حطباً وأضرَمَتْهُ ناراً، وقالت:

سَأَكْتُمُ مَا بِي مِنْ غَرَامِي وَأَشْجَانِي	وَأُضْرِمُ نَارِي كَي أُغَالِطَ جِيْرَانِي
وَأَرْضَى بِمَا أَمْضَى مِنَ الحُكْمِ سَيِّدِي	عَسَاهُ يَرى ذُلِّي لَدَيْه فَيَرْضَانِي
فَقُمْ لِنُؤَدِّي شُكْرَ مَا قَدْ أَنَالَهُ	فَأَعْظَمْ مِنْهُ لَوْ ترى صَرْفَ عِصْيَانِي
وَمَا يَفْعَلُ المَوْلَى هُوَ الخَيْرُ كُلُّهُ	فَيَا رُبَّ مَنْعٍ طَيُّهُ كُلُّ إِحْسَانِ

ثمّ توضَّأَا وقامَا إلى الصلاةِ، وإذ بامرأةٍ من جيرانهم تستأذنها في أن توقدَ من نارها، فقالت لها: شأنُكِ والتنور، خذي منه شعلةً.

فلمَّا دَنَتْ من التنور نادتِ المرأةُ الجارةُ: يا أمّ الخير أدركي خبزك قَبْلَ أن يحترقَ.

فقالت المرأة الصالحة لزوجها: أسمعتَ ما تقول جارتنا؟

فقال: قومي وانظري الخبرَ.

فقامت ونظرت فإذا التنور مليء بالخبز الأبيض الناضج، فأخذت الأرغفة ودخلت بها على زوجها وهي تشكر اللّه تعالى وتحمده على ما أولى من الخير العميم والمَنِّ الجسيم. فأكلا وشربا، وشكرا اللّهَ تعالى.

ثمّ قالت المرأة لزوجها: قُمْ بنا ندعو اللّه تعالى عسى أن يمُنَّ علينا بشيء يغنينا عن الكدِّ والتعب ويُعيننا على عبادته والقيام بطاعته.

فقام الرجل ودعا ربَّه وأمَّنتِ الزوجة على دعائه فإذا بسقف البيت قد انفرجَ ونزلت منه ياقوتة أضاء البيتُ من نورِها وإشراقها، فزادا اللّه تعالى شكراً وثناءً،

operikan.com

وسُرَّا بتلك الياقوتةِ سروراً كبيراً، وصلَّيَا ما شاءَ اللّهُ تعالى. فلمَّا جَنَّ[1] الليلُ ونامَا رأتِ المرأةُ في منامها وكأنَّها دخلتِ الجنَّةَ ورأتْ منابرَ كثيرةً مصفوفةً وكراسيَّ منصوبةً، فقالت: ما هذه المنابرُ؟

فقيل لها: هذه منابرُ الأنبياءِ والمرسلين.

وقالت: ما هذه الكراسيّ؟

فقيل لها: هذه كراسي الأولياء والصدِّيقين.

فقالت: وأين كرسي زوجي؟

فقيل: ها هو. فنظرتْ فإذا بجانبه ثَلْمٌ

فقالت: وما هذا الثَّلْمُ؟

فقيل لها: هذا مكان الياقوتة التي ناجيتم اللّه أن ينزلها عليكما.

فانتبهت المرأةُ من نومها وهي باكية حزناً على ما نقص من كرسيّ زوجها وثلمه بين كراسي الصدّيقين. فسألها زوجها: ما بكِ يا امرأة، وعَلامَ بكاؤكِ؟

فقالت: قُمْ معي لندعو اللّه أن يردَّ هذه الياقوتة إلى مكانها، فمكابدةُ الجوعِ، والمسكَنَةُ في الأيام القلائل أهون من ثَلْمِ كرسيك في الجنَّة بين أصحاب الفضائل.

وأخبرته بما رأت في نومها، فقام الرجل ودعا ربَّهُ أن يردَّ الياقوتة ويرزقه الصحّة ليتابعَ عمله، ويستطيعَ عبادته وصلاته دون تقصير، فإذا بالياقوتة قد طارتْ صاعدةً من السقف وهما ينظران إليها فرحَيْن.

ثمّ شاهدت المرأةُ المنامَ ذاتَهُ ونظرت إلى كرسيّ زوجها فوجدت أنَّ الثلمَ قد اختفى، فسُرَّتْ بذلك وحمدَتْ ربَّها على ذلك، وظلاَّ على عبادتهما حتّى لقيَا اللّه تعالى. رحمةُ اللّه عليهما.

والحَمْدُ للّهِ ربِّ العَالَمين، وَالصَّلاَةُ عَلى سيِّدِ المرسَلين.

---

(1) جَنَّ الليلُ: أظلَمَ وزادَت عتمتُهُ .

5 ـ قِصَّةُ العَابِدِ فِي المَغَارَةِ مَعَ السُّلْطَانِ.

رُوِيَ عن رجلٍ من الصالحين، متعبّدٍ للّه في مغارةٍ، يقضي ليله ونهاره بالصلاة والقيام، لباسُه الصوف، ورداؤه الخوف، وقوتُهُ كل يوم قرص شعير يبعثُه اللّه له، وذات يومٍ دخل عليه رجلٌ من بعض المناطق وقد سمع به وشاع خبرُهُ بين الناس.

فقال الرجلُ للعابدِ: أريد أن أصحَبكَ على ما أنتَ فيه من الطاعة والعبادة.

فقال له: مرحباً بك، على شرط أن تصبر على العبادة وأن تطيعني فيما أقول لك، ولا تخالفني في أمرٍ وإن كان لك مجهولاً.

فقال: نعم. وإنّي واللّهِ سأصبر، وليكن اللّه في قلبي ودربي، ومعاذ اللّه أن أخالفك.

فقسَمَ العبدُ قرصَ الشعير بينهما وقال: كُلْ ممَّا أنعمَ اللّه علينا واحمُدِ المولى وزِدْ في شكره.

ومرّتِ الأيَّامُ وهما على حالهما من العبادة والصلاة والطاعة حتّى جاء يومٌ قال العابد فيه لأخيه: أريدك أن تذهب إلى قصر السلطان وتخطب ابنته.

فقال له: وكيف يقبلُ السلطان أن يزوّجني ابنته، وأنا على هذه الحال المزرية، ومن أين أقدّمُ نقدها إذا زوّجني إيّاها، فلعلك لا تريدُ خيراً بهذا الأمر؟

فقال العابدُ: قلتُ لكَ ذلك وأراكَ تخالفني فيما أقول وأنت لا تدري ما يكون. فقال: لا خلافَ لأمركَ.

ثمّ مضى إلى دار السلطان ورَامَ أن يدخلَ القصرَ فطرده الحجَّاب وأشبعوه ضرباً حتّى آلَمُوهُ، فعادَ إلى صاحبه وقال: انظر ما فعلتَ معي. لقد آلموني بالضرب وما قَدِرْتُ أن أصل إلى السلطانِ أو أن أكلمَه.

فقال العابدُ: اصبرْ وتوكَّلْ على اللّه.

obeikan.com

فلمَّا بَرِئَ من الضرب وآلامه قال العابدُ له: عَاوِدْ إلى السلطان كما قلتُ لكَ واطلب ابنتَهُ للزواج. فقال: يا أخي! مالي حاجة إلى ذلك، فإنَّهم يهلكوني هذه المرّة.

فقال: يجب أن تذهبَ كما أقولُ لكَ.

فقال: السمع والطّاعة ولو لن أرجعَ بعدَها.

ثمّ مضى إلى دار السلطان يريد الدخول، وتظاهَرَ بالحاجة فقال بعض الحجّاب خلّوه يدخل لعلّه مظلوم يريدُ أن يعرضَ شكواه على السلطان. فأدخلوه، فلمَّا وصلَ دعا للسلطانِ بطولِ العمرِ فقال السلطانُ: ما حاجتُكَ يا فقيرُ؟

فقال: قد بعثني أخي إليك لتزوّجني ابنتك.

فقال السلطان: ومَنْ أخوك وما حالتُه بين الملوكِ؟

فأجاب: أنا كما أخي، نسكنُ في مغارة نعبدُ فيها اللّهَ.

فقال السلطانُ: وإذا زوّجتكَ ابنتي أتقدرُ أن تقدّم نقدهَا ومهرَها؟

فقال: إن شاء اللّه أفعل.

فقال السلطانُ وهو يريدُ السخريةَ منه بين وزرائه وحاشيته: إن كُنْتَ تقدِّمُ ما نكتبُ لكَ من نَقْدٍ، نزوّجكَ ابنتنا.

ثمّ كتبَ الملكُ من النقد الآلاف من الدنانير الذهبية، ومن القماش الغالي الثمن، والخيل والجِمَال والعبيد والجواري والشيء المعظّم من الذهب والفضّة والجواهر واللآلئ، وقصور شاهقة أبوابها من ذهب ومَفْروشة من الديباج والحرير والفُرُش الوثيرة.

وقال له: إن أحضرتَ ما كتبتُ لكَ فإنّي سأزوّجك ابنتي ومعك مهلة شهرٌ من الزمن.

فمضى الرجلُ إلى المغارة، وأخبر العابدَ بما طلبَه السلطانُ.

فقال العابدُ: لا تقلقْ وتوكّل على اللّه وامضِ إلى تلك المرجة خلف الرابية وانظر ما ترى، ثمّ اذهبْ إلى السلطان ثانية.

فمضى الرجلُ إلى المرجة التي ذكرهَا فوجدَ حارةً عظيمةً أبوابها من الذهب وفيها كلّ ما ذكر السلطانُ وأزيدُ، ثمّ توجّه من ساعته إلى السلطان وقال له: لقد حضّرنا ما ذكرتَ من نقد ابنتكَ.

فمضى السلطانُ مع وزرائه وأعوانه إلى المرجة وشاهدوا الحارة والقصور وما فيها من فرْشٍ وذَهَبٍ وجواهرَ تفوق قصر السلطان، فتعجّبوا منها، وسألوه كيف جهّزها بهذه السرعة وفق ما كتبَه السلطانُ.

فقال: هذا من فضل ربّي ومَنِّه، فهل ستفي وعدكَ لي؟

فقال السلطان وقد رأى ما رأى: طبعاً وهل سنجد لابنتنا من هو أكثر منك مالاً وجاهاً؟

ثمّ عمل له عرساً كما تعملُ الملوك وأدخلوا عروسه إلى تلك الحارة. وكان العابدُ قد أوصاه ألاَّ يدخلَ فِرَاشَهُ قبل أن يدقَّ عليه الباب، إلاَّ أن الرجلَ اندهش ممّا رأى من جمال بنت السلطان وما حوله من النعيم العظيم والذهب والحرير، فنسِيَ قول العابد وحلَّ زِنَّارَهُ، فإذا بأخيه العابد يدقُّ الباب عليه.

فقال: أعوذُ باللّه من الشيطان الرجيم، لقد نسيتُ قولك وحللتُ زنَّاري.

فقال العابدُ: لا تبالي، انظر إلى هذا النعيم العظيم، فقال: نعم.

قال: أصِرْتَ سلطاناً؟

قال: نعم.

قال: أتشتهي مغارتي وعيشي أم هذا النعيم الزائل؟

فقال: معاذَ اللّه أن أبدِّل الباقي بالفاني.

فخرج عندئذٍ من الحارة تاركاً كلّ شيء، ونزع ما كان عليه من الحُلَلِ الثمينة وارتدى جُبَّةَ الصوف واتبع أخاه، ودامَا على حالهما من العبادة والتقشّف إلى أن لاَقا ربّهما، رحمةُ اللّهِ عليهما.

وَالحَمْدُ للّهِ ذِي الإِنْعَامِ والإِكْرَامِ، وعلى رُسُلِهِ كُلُّ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

obeikan.com

6 ـ قِصَّةُ وَزِيْرِ الخَلِيْفَةِ المَأَمُونِ.

رُوِيَ عن الخليفة العباسي المأمون أنّه عيَّن عنده وزيراً مدبِّراً لأمور دولته، ناصحاً له في شؤونه وحاجتهِ، وكان هذا الوزيرُ رجلاً صالحاً، عابداً، خائفاً من الله، فلمَّا كان في بعض الليالي تفكّر في خلاص روحه ونجاة نفسه، وكيفية خروجه من خدمةِ الملوك والسلاطين، والأعمال التي تورث معصية ربِّ العالمين، فترك خدمة المأمون وأقلع عن وزارته والتجأ إلى كهفٍ يتعبّد فيه اللّهَ وَيَعْتزل الناس وشرورهم.

فلمَّا علم المأمون بذلك أرسلَ خلفه مَنْ استحضره، فلمَّا قَدِمَ عليه قال له: ما الذي شغَلَكَ عن خدمتي، وقطعك عن باب نعمتي، وكنتُ قد أطلقتُ يَدكَ تفعلُ ما تُريدُ؟

فقال له: يا سيّدي لقد خدمتُ ملكاً أعزّ منك وأكرمُ.

فقال المأمون مستغرباً: وبِمَ عامَلَكَ هذا الملكُ خير ممّا عاملتُكَ به أنا؟

فقال: يا سيدي! الملكُ الذي أخدُمهُ عمل معي سِتَّ خصالٍ لمْ أُبصرها منك أبداً.

فقال: هاتِ أخبرنا بهذه الخصال الستّة التي قصّرنا فيها.

قال: **الأولى**: كنتَ إذا أردتُ الدخولَ إليك طلبتُ مستأذناً يستأذنُ لي، وبوّاباً يفتح الباب، وربّما كُنْتَ لا ترغبُ برؤيتي فتمنعني الدخول، أو تملَّ من حديثي فتأمرني بالانصراف. بينما الملكُ الذي اشتغلتُ بخدمتهِ لا يزال بابُه مفتوحاً لي ولِمَنْ قصدَهُ، لا يردُّ سائلاً ولا محتاجاً ولا يملّ حديثي ولا أملّهُ.

والثانية: كنتُ إذا دخلتُ عندك وقفتُ يومي كلَّه أخدُمك وأقضي حوائجك، فلاتهتمّ بي وبوقوفي، ولا تطلبُ مني الجلوس لأسترح، والآن الملك الذي أخدمه بين كلّ ركعةٍ وركعةٍ يقول لي يا عبدي اجلس فاسترِحْ.

obeikan.com

والثالثةُ: كنتُ إذا صِرْتَ تأكل طَعامَكَ أقف حتّى تنتهي وأنا أنظرُ إليكَ ثمّ تقول لي حين تشبع: كُلْ ما تبقّى وارفع الأطباق. والآن صِرتُ بخدمةِ ملكٍ آكلُ أنا وهو لا يأكلُ ولا يشرب.

والرابعةُ: كنتُ إذا دخلتُ عليك وقفتُ فوق رأسك ليلي كلّه أحرسُكَ حتّى تنامَ مرتاحاً مطمئنَّ البال، والآن الملكُ الذي أخدمُه أنام أنا وهو يحرسني وهو لا يغفل ولا ينام.

والخامسةُ: كنتُ أخافُ على زوال ملككَ فتزول نعمتي بزواله. بينما الملك الذي خدمتُهُ ملكُه لا يحولُ ولا يزولُ، بل هو دائمٌ باقٍ حيٌّ لا يموتُ.

والسادسةُ: كنتُ أخاف أن يسعى بي إليك سَاعٍ فتهلكني ظلماً وزُوْراً وتنسى أفضالي وأعمالي، والآن الملكُ الذي خدمتُه لا يقبل بي سَعْيَ الساعي ولا يخفى عنه خافية، ولا يضيّع عملاً من أعمالي حتّى ولو كان مثقال ذرّةٍ، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

فقال المأمون: امضِ سالماً إلى ملكك وفّقَكَ لطاعته ورزقنا ما رزقك من ملاطفته.

فمضى وعاد إلى كهفه وتابع عبادته وزهده حتّى لاقى ربَّه، رحمةُ الله عليه.

والحَمْد لِمَنْ لَهُ الحَمْدُ وَحْدَهُ، وَبيدهِ ملكوتُ كل شيءٍ، وعليه يتوكلُّ عبدُهُ.